الأسس الفكرية للمسؤولية الاجتماعية

د/ فـــــؤاد البنـــــا *

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، والصلاة والسلام على سيد الرسل وهادي الناس أجمعين، الذي رفع العرب ــ خصوصاً ــ من غياهب الفرديـــة وجُـــبِّ السلبية إلى فراقد المسؤولية الاجتماعية وأعالي الفاعلية الإيجابية.

أما بعد:

إن الناظر في واقع أمتنا، وخاصة حاضر شبابها، يلاحظ كيف تناوشتها حراب السلبية وأسِنّة الفردية الطاغية، وأصابتها آفة التشظي وعاهة التشرذم وعزف كثير من شبابها عن الاندماج الايجابي في مجتمعاتهم، والمساهمة في محاصرة آلامها وتجسيد آمالها.

ومن حيث المبدأ فإن هذه الإشكالية مرتبطة بظاهرة التخلف العام، لكنها أكثر اتصـــالاً بمناهج بناء هؤلاء الشباب وطرق إعدادهم، حيث أن أسس المسؤولية الاجتماعية في هـــذه المناهج والطرائق هزيلة ومفككة، وتحتاج إلى تقييم علمي وتقويم موضوعي.

ويبدو للباحث أن الوصول بالشباب إلى ذروة الشعور بالمسؤولية الاجتماعية، عروجاً نحو الفاعلية المنشودة، يحتاج إلى مفردات كثيرة في مباني شخصياتهم تخليـــة وتحليـــة، تتوزع في أربعة ميادين:

الأول: الميدان الفكري المعرفي:

الذي يقدم المعلومة الصحيحة والفكرة السوية والخطة الرشيدة، ويصنع بوصلة السعي الصحيح في طريق الخدمة الاجتماعية، طريق التوسط بين الاقتحـــام الســـاخن والانطـــواء البارد، أو بين الانغماس العنيف والانسحاب السخيف.

* أستاذ الفكر الإسلامي السياسي المشارك – جامعة تعز.

الثاني: الميدان العاطفي الوجداني:

الذي يوفر الظروف والمناخات المناسبة لإحالة المعلومات والأفكار إلى مشاعر جمعية دافعة بقوة نحو العناية بآلام المجتمع وآماله، أي تحويل المعلومات والأفكار إلى اتجاهات.

الثالث: الميدان القيمي والأخلاقي:

ويتم فيه الاهتمام بإشاعة القيم والأخلاق الاجتماعية التي تترجم المشاعر والأحاسيس والانفعالات الوقتية إلى طاقة روحية دائمة، حتى تخلق إرادة الانغراس الطوعي في الشان العام والانغماس العبادي في خدمة المجتمع.

الرابع: ميدان المهارات:

ويتم العمل فيه على توفير الوسائل والأساليب والبرامج والآليات الكفيلة بتحويل الانفعالات الجمعية إلى فاعليات عملية مستديمة، ويجسد القيم والاتجاهات الجمعية في مناشط ومشاريع تنفع البلاد والعباد في المعاش والمعاد.

وغني عن الذكر أن أهم هذه الميادين الأربعة هو الميدان الفكري والمعرفي؛ لأنه المدماك الذي سيقوم عليه مبنى المسؤولية الاجتماعية، ولأنه يمتلك بوصلة السير في مرحلة البناء، إذ أنه المسؤول عن صناعة التصور الصحيح إذا أُحسنت قراءته، ثم إن العمل فرع عن التصور كما هو معلوم في المنطق العقلي.

ونظراً لذلك ولأنه المجال الأقل اهتماماً من قبل الباحثين والأكثر غبناً في حياة المسلمين، فقد اختاره الباحث لدراسته هذه، ورأى أن يكون العنوان متمحوراً حوله، وهو: الأسس الفكرية للمسؤولية الاجتماعية. وفي سبيل تحقيق الهدف من هذا البحث بأفضل كفاءة ممكنة، رأى الباحث أن المنهج الأفضل في هذا المقام هو المنهج التحليلي، حيث استفاد بصورة رئيسة من إمكاناته في تحليل قضايا البحث، مع حرص شديد على الإيجاز غير المُخل، حتى يتناسب حجم البحث مع طبيعة الخارطة التي سينتمي إليها. وقد تم تقسيم هذا المدماك الفكري للمسؤولية الاجتماعية إلى أربعة أسس:

الأول: المسؤولية الاجتماعية عبادة متعدية.

الثاني: المسؤولية الفردية وتنمية الحس الجمعي.

الثالث: تنمية الذات الاجتماعية المؤتلفة.

الرابع: التعامل الموضوعي مع الآخرين.

أتمنى أن ينجح هذا البحث في الإجابة عن بعض الأسئلة المطروحة في سياق المسؤولية الاجتماعية، وإن لم يتحقق ذلك فإن حسبي أنه أثار أسئلة قد تساعد آخرين على المجيء بإجابات شافية كافية، ومهما يكن الأمر فإن صاحب الحمد يستحق الحمد أولاً وآخراً وفي كل حال، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الأساس الأول: المسؤولية الاجتماعية عبادة متعدية

إن مفهوم العبادة في الإسلام يختلف عما هو قائم في الديانات الأخرى، فالكون هو محراب المسلم، يعبد الله في كل حالاته وسائر ساعاته، فهو يعبده بالصلاة واللعب، بالجد والهزل، بالصيام والأكل، بالقيام والنوم، بالبكاء والضحك، بالعمل والدعة، بالحركة والسكون، بالتمتع والتقنع، بالاختلاط والعزلة، وبالتالي فإن سائر حركات المؤمن تكون عبادة ما دام فيها أمران، اتباع مقاصد الشرع، وإخلاص النية لله،{قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ١٦٢].

وهذا يعني أن المسؤولية الاجتماعية بكل ما فيها من مفردات مادية ومعنوية هي جزء أصيل من منظومة العبادة في الإسلام.

ومن خلال استقراء أوامر الإسلام المؤسسة لشُعب الإيمان، ونواهيه المحذرة من اقتراف الكبائر، سنجد أن كل شُعب العبادة تنقسم إلى قسمين:

الأول: ما هو بين المُكلف وخالقه، وهذا النوع يسمى عبادة لازمة، لأن المستفيد من هذه العبادة بصورة مباشرة هو الفرد ذاته (المُكلف)، وهو المتضرر الأول إن فرط فيها.

الآخر: ما هو بين المُكلف وإخوانه من البشر وسائر المخلوقات، وهذا النوع يسمى عبادة متعدية، لأن المحيطين بالمُكلف سيربحون إن التزم وسيخسرون إن فرَّط وقصَّر.

وهذا يعني أن النوع الأول من العبادات يجتمع فيه حقان: حق لله وحق للفرد المُكلف. أما النوع الآخر فيجتمع فيه ثلاثة حقوق: حق الله، حق المُكلف، حق المخلوقين. ولهذا رأى العلماء أن العبادات كلها واجبة، لكن المتعدية أوجب، وأن التفريط في أي منها حرام، لكن التفريط في المتعدية أحرم، لأن المفاسد الناتجة عنها ستصير مفاسد متعدية، وبالتالي كلما زاد عدد المنتفعين من هذه العبادة زاد الوجوب وتضخم الأجر، وكلما زاد عدد المتضررين من عكسها زادت الحرمة واتسع الوزر. وسنزيد هذا الأمر وضوحاً من خلال النقاط الآتية:

١. الإيمان شجرة ثمارها الصالحات:

من يقرأ القرآن سيجد أن الإيمان اقترن بالصالحات، ولم ينفك عنها في عشرات المواضع فيه، لأن الإيمان ليس مجرد شعار بلا شعائر و شرائع، وليس مجرد دعوى بدون دليل وبرهان، فهو شجرة ربانية ثمارها الصالحات، وهو مظهر جوهره مصالح الفرد والمجتمع.

إن من يقرأ تاريخ هذه الأمة سيلاحظ كيف استحال الإيمان إلى أعمال صالحة عمرت الأرض وأسعدت الإنسان، حيث جلب هذا الإيمان للإنسان كل مصالحه في المعاش والمعاد، وأزاح عن طريقه كل مفسدة وقفت في طريق سعادته الدنيوية أو فوزه الأخروي.

وما زال كرّ الليالي وفرّ الأيام بالمسلمين حتى خيم عليهم الجهل وغشيتهم الأمية الدينية، وغاب عنهم الوعي، مما أحال هذا الإيمان إلى شجرة بلا ثمار، وجسم بلا روح. ومع مرور قرون من الضعف والتراجع وصل عامة المسلمين إلى غياهب الجهل، وكاد الإيمان العقيم أن يصبح عند كثيرين ثقافة كاسحة وتياراً جارفاً، وتقاليد مرعية.

يقول د. عبدالكريم بكار:"إن وعي كثير من المسلمين اليوم مغيب عن هذه الوظيفة الجوهرية للإيمان، وذلك بسبب سيطرة التقاليد والبرمجة البيئية على مفاهيمنا ومشاعرنا، حيث إن تناول معظم الناس لمسألة الإيمان والالتزام ــ عامة ــ يتم وفق ما هو سائد في مجتمعاتهم، مما يعني أن ملامسة جوهر الإيمان وحقيقته لن تتم إلا من خلال انتفاضة كبرى للوعي، تعيد الأمور إلى نصابها"[1].

وللعلاقة الوثيقة بين الفكر والفعل، أو بين العلم والعمل، فإن إعادة الإيمان إلى دائرة الفاعلية يحتاج إلى تدبر النصوص القرآنية التي تؤكد أن الإيمان بدون أعمال صالحة لا يسعف المسلم في القيام بخلافة الله في هذه الأرض لعمارتها وقيادة الركب البشري في الطريق إلى الفوز بالجنة.

قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠]. فالاستقامة في الحياة هي عمل الصالحات وتجنب الطالحات، هذه الاستقامة هي ثمرة الإيمان، والإيمان لا يتم بصورته الصحيحة إلا بتجسد التقوى"التي هي فضيلة أراد بها القرآن الكريم إحكام ما بين الإنسان والخلق، وإحكام ما بين الإنسان وخالقه. والمراد بها أن تقي الإنسان مما يغضب ربه، وما فيه ضرر لنفسه أو ضرر لغيره"[2].

والشعائر التعبدية من صلاة وصيام وحج وذكر وزكاة، ما شرعها الله إلا من أجل مصالح المُكلف ومصالح المحيطين به، فهي شجرة باسقة ودوحة عظيمة ذات ثمار تربوية ونفسية وجسمية واجتماعية، بمعنى أنها روافع لخدمة المصالح الاجتماعية، وهي لا تؤتي أكلها وثمارها إلا إذا أقيمت وفق منهج المصطفى ﷺ، وبغير هذه الثمار فإنها غير مقبولة، ولا تعتق أصحابها من النار، لأنها لم تسعفهم في علاقتهم مع الآخرين[3].

ومن المعلوم أن هذه الشعائر تتوزع كمحطات للتزود بين يومية وأسبوعية وسنوية وعمرية، وكلها تتظافر لصنع الفرد الايجابي، والشخصية الفاعلة، واللبنة القوية في صرح المجتمع.

ومن الواضح أن أهم هذه الشعائر هي الصلاة، لأنها محطة تزود دائمة، إذ تتكرر خلال اليوم الواحد خمس مرات، ولذلك فإن مقاصدها وثمارها عظيمة إذا أقيمت ولم تؤد مجرد أداء، بمعنى أن مبناها ملتزم باتباع الشرع، ومعناها ملتزم بالإخلاص لله[4].

وتعود الصلاة بثمارها الواسعة والرائعة على القائم بها في دوائره التربوية والنفسية والجسمية، وبالتالي سيكون لبنة صالحة وفاعلة في صرح مجتمعه، لأن المجتمع ما هو إلا مجموعة من الأفراد، ومع ذلك فإن للصلاة آثاراً اجتماعية مباشرة، وهي: التأسيس لجماعة المسلمين ووحدتهم، تجسيد قيم

النظام في جماعة المسلمين، تأكيد لحمة الجسد الإسلامي، تأكيد قيمة الوقت وأمانة المواقيت[٥]، مع ما تحتاجه هذه النقاط من متطلبات تستدعي تعميق التكافل الاجتماعي مادياً ومعنوياً.

ولأن الصلاة بدون هذه الثمار لا تغني شيئاً، فقد قال تعالى {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٧] وتولية الوجوه قبل المشرق والمغرب كناية عن الصلاة[٦].

ولأهمية الإيمان في عمارة الحياة وخدمة حقوق الإنسان، وتربية المسلم على الشعور بالمسؤولية الاجتماعية، فقد ربط المصطفى ﷺ بين الإيمان وسائر المعاملات التي سماها (شُعب الإيمان)، كأن الإيمان مطر غزير يبرهن عن نفسه بجريانه في شعاب الحياة وشُعب المعاملات، قال ﷺ"الإيمان بضع وسبعون ــ أو بضع وستون شعبة ــ أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان"[٧].

ومن ذلك الربط – على سبيل المثال – قوله ﷺ:

ــ"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"[٨].

ــ"أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً"[٩].

ــ"إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم"[١٠].

ولأن طبيعة هذا البحث لا تسمح بالتوسع، فإن العودة إلى أي كتاب من الكتب التي تعمقت في شعب الإيمان ككتاب (شُعب الإيمان) للإمام البيهقي، توضح كيف ربط الإسلام ــ قرآناً وسنة ــ بين الإيمان وشتى الأعمال الصالحة، وتبين أن عشرات الشُعب تدخل ضمن خلق وتنمية الشعور بالمسؤولية الاجتماعية بدائرتها العريضة الشاملة للماديات والمعنويات التي وردت بصورة مباشرة، أو المفردات الخادمة لهما بصورة غير مباشرة.

٢. التمكين في الأرض رهين العبودية في محرابها:

لا يكفي المسلم أن يكون عابداً في (محراب الصلاة)، بل لا بد من عبوديته في (محراب الحياة)،فالإسلام ليس ديناً لاهوتياً كالنصرانية، بل هو دين شامل، جاء لتعبيد الناس لله في كل شؤون حياتهم، سواء كانت معتقدات أو أقوالاً أو أفعالاً، وقد وضح هذا المفهوم العريض للعبودية عدد من العلماء في كتب كاملة، مثل شيخ الإسلام ابن تيمية (تـ/٧٢٨هـ) من القدامى في كتابه الشهير (العبودية)[١١] ومن المعاصرين الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه المعروف: (العبادة في الإسلام).

ومن عبوديته تعالى في (محراب الحياة) القيام بواجبات المسؤولية الاجتماعية، فإنها إحدى الطرق الأساسية الموصلة إلى التمكين في الأرض، بمعنى أن (التمكين في الأرض) ثمرة للتفاعل الإيجابي مع (منهج السماء)، وبالتالي تصبح العبادة الركن الركين لإقامة مبنى حقوق الإنسان(١٢).

إن حركة التمكين الحضاري لأي مجتمع هي حركة كلية، أي أن المجتمع يتحرك نحوها كقطعة واحدة، أما إذا تقطعت علاقاته وتمزقت أواصره، باجتياح الأقوياء لحرمات الضعفاء، واستيلاء الكبار على حقوق الصغار، فإنه لا يكون قادراً على الحركة والنهوض. وهذه من سنن الله تعالى فإن الظلم مؤذن بخراب العمران، وهذا ما تؤكده وقائع التاريخ، بجانب مقاصد ونصوص هذا الدين العظيم.

قال تعالى {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور:٥٥]، لقد ربط الله الاستخلاف والتمكين بالإيمان وعمل الصالحات في بداية الوعد، ثم بالعبودية بعد الوعد {يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا}، وهي العبادة الشاملة لكل شعب الإيمان والمتمددة في كل آفاق الكون والمتغلغلة في كل زوايا الحياة.

أما {عملوا الصالحات} فإن مصطلح العمل يفيد القصد والاستمرار بعكس الفعل الذي قد يكون قصيراً وقته، وقد لا يكون مقصوداً، والصالحات اسم جامع لكل ما يحقق للناس مصلحة أو يدرأ عنهم مفسدة(١٣).

وحذر القرآن من الظلم المتجه من الأقوياء نحو الضعفاء، ومن الفسق المتجه من الأغنياء نحو الفقراء، معتبراً ذلك السبب الأساسي لسقوط الدول والحضارات، ونزول العذاب الاستئصالي، قال تعالى{كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ} [القصص: ٥٨]، وقال{وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا}[الإسراء: ١٦].

ولما كان العدل أهم مقاصد الإسلام، ولما كان غيابه يعني حضور الظلم وهو مدمر للحضارات، فإن الانحراف عن مقتضيات العدل ومفرداته يكون تولياً عن الإسلام، يستحق أصحابه الاستبدال والتغيير، قال تعالى: {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}[محمد: ٣٨]، لأن الله لا يستبدل بالظالم ظالماً.

وجاءت السنة النبوية لتؤكد نفس المعاني، عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:"إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢](١٤). ولهذا أوصى رسولنا محمد ﷺ بالضعفاء كثيراً، فقال ﷺ:"ابغوني الضعفاء، فإنما تُنصرون وتُرزقون بضعفائكم"(١٥).

وقد أورد شيخ الإسلام ابن تيمية مقولة تؤكد انحياز الإسلام إلى العدل، ووقوفه ضد الظلم، وربطه بين هذا الأمر وتحقيق النصر والتمكين أو الهزيمة والاستعباد، حيث قال رحمه الله:"إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة}[١٦].

٣.أهمية التقوى الاجتماعية:

التقوى في الإسلام ليست صلة لازمة، بمعنى انحصارها بين العبد وربه، بل هي صلة متعدية، حيث لا يكون المسلم تقياً حتى يلتزم بالتقوى في تعاملاته مع الخلق، فلا يجده حيث نهاه، ولا يفتقده حيث أمره. وبالتالي فإن التقوى ذات ظلال اجتماعية، وثمار عملية، فإن الله يكون حيث يكون الضعفاء والمحتاجون.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:"إن الله عزوجل يقول يوم القيامة"يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني!، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني! قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني! قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه! أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي!"[١٧].

وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:"المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة"[١٨].

ومع أن الله غني عن عبادة العالمين، فقد جعل الإحسان إلى الفقراء والمساكين إحساناً إليه تعالى، وصلة الضعفاء صلة له، حتى يقوي دوافع الخير عند الإنسان ويضعف نوازع الشر والأثرة والطمع، وحتى يدرك هذا الإنسان مكانة الخدمة الاجتماعية في منهج العبودية الإسلامية. ولذلك طالب الله تعالى بإقراضه عن طريق الإحسان إلى هؤلاء، فقال عزوجل{مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} [الحديد: ١١] لأنه يحمل المعنى السابق وكذلك معنى استعادة هذا المال في الآخرة مضاعفاً أضعافاً كثيرة، وفقاً لمدى الإخلاص، ومدى النفع المتحقق به، ومدى حاجة المنفق إليه.

ومن خلال استقراء الإمام ابن القيم لنصوص الإسلام لاحظ كيف جعل الجزاء من جنس العمل في سياق العلاقة بين الناس، فقال رحمه الله:"من ستر مسلماً ستره الله، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن أقال نادماً أقال الله عثرته يوم القيامة، ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن

ضار مسلماً ضار الله به، ومن شاق شاق الله عليه، ومن خذل مسلماً في موضع يحب نصرته فيه خذله الله في موضع يحب نصرته فيه، ومن سمّع سمّع الله به، والراحمون يرحمهم الرحمن، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء، ومن أنفق أُنفق عليه، ومن أوعى أوعي عليه، ومن عفا عن حقه عفا الله له عن حقه، ومن تجاوز تجاوز الله عنه، ومن استقصى استقصى الله عليه"[١٩].

وهكذا، جعل الله تعالى المرابين محاربين له، لأنهم يمتصون دماء الفقراء والضعفاء، وبرئت ذمته تعالى من أصناف كثيرة من الظلمة والمستغلين للضعفاء، مثل المحتكرين، والذين لا يمدون يد المساعدة للمحتاجين، واعتبر آخرين خونة لله، مثل أصحاب الولايات الذين يضعون على رقاب المسلمين من ليس بأصلح لهم.

اذاً التقوى ليست أشكالاً وطقوساً، بل هي مضامين وأعمال صالحة تعود بالخدمة على من يحتاجها من خلق الله تعالى. وما لم يتحقق ذلك فإن المسلم نفسه ــ فضلاً عن غيره ــ يكون مكذباً بالدين، لأن الدين رحمة وتكافل وإحسان، قبل أن يكون شعائر وأقوالاً، وهذا ما أشارت إليه سورة (الماعون)، عندما عجّب الله نبيه محمداً ﷺ من صنف من الناس، وقد يكونون مسلمين، بسبب اختلاف لغة القول عن لغة الفعل أو لسان الحال، قال تعالى {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الماعون: ١ – ٣].

فإن إقامة الشعائر وادعاء الإيمان مع دعّ اليتيم بغلظة وعدم الحض على إطعام المسكين، لا يجعل المرء تقياً ولا مؤمناً، بل يجعله مكذباً بالدين!!.

ومثل كل الفضائل والقيم العظيمة، فإن الطريق الأول لتحصيل التقوى هو الطريق المعرفي، عن طريق تدبر القرآن، بالجمع بين الوعي والخشوع، قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا} [طه: ١١٣].

٤. العبادات المتعدية أوفر أجراً من العبادات اللازمة:

لاشك أن الشعور بالمسؤولية في واقع المسلمين في هذا العصر ضعيف، ولا شك أن العامل هو ضعف التدين، إما من خلال ابتعاد الكثيرين عن الإسلام، وإما من خلال سوء فهم آخرين للإسلام، بسبب ضيق دائرة الوعي، الذي أدى إلى ضيق دائرة العبودية، وبالتالي خرجت معظم المفردات المكونة للمسؤولية الاجتماعية من دائرة العبودية لله.

ومن صور هذا الخلل الفصل الظالم بين حقوق الله وحقوق الناس، فهناك أصناف من المتدينين، تتشدد إلى حد التطرف في حقوق الله، وتتفلت في حقوق الناس إلى حد يقترب من الجحود، وهناك غيرة على حقوق الله قد تصل إلى إقامة ثورة على أمور فرعية، مقابل السكوت عن حقوق الناس حتى لو كانت من أساسيات هذا الدين[٢٠].

ويؤكد استقراء نصوص الإسلام أن العبادات المتعدية تتفوق على العبادات اللازمة بثلاث نقاط:

الأولى: أنها أثقل في الميزان:

إن أجور العبادة المتعدية أكبر من أجور العبادة اللازمة وقد عنون الإمام الشاطبي أحد فصول كتابه (الموافقات) بـ:"العمل على المقاصد الأصلية أعظم للطاعة"وبرر ذلك الفصل بأن"العامل على وفقها لإصلاح جميع الخلق، والدفع عنهم على الإطلاق"(٢١).

وبسبب ثقل العبادات المتعدية، فإن أعمالاً قليلة منها تساوي أعمالاً كثيرة في خانة العبادات اللازمة، بل قد تكون سبباً في دخول الجنة مع قلتها. عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:"أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا"، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما"(٢٢).

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:"الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله"وأحسبه قال"وكالقائم الذي لا يفتر وكالصائم لا يفطر"(٢٣). وعن أبي هريرة ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ قال: تقوى الله وحسن الخلق"وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال:"الفم والفرج"(٢٤).

وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:"إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مجلساً مني يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون"(٢٥).

الثانية: أنها أبقى بعد الموت:

من المعلوم أن الإنسان يؤجر على قدر الأعمال، وأن أجر العبادات اللازمة ينتهي بموت الإنسان، لكن القرآن أشار في أكثر من آية إلى وجود أعمال يستمر أجرها بعد موت الإنسان، قال تعالى{وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} [يس: ١٢]، وقال:{يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ}[القيامة: ١٣]، فالآثار هي العبادات المتعدية أو المعاصي المتعدية، مثل: العلم الذي يستمر الانتفاع به، أو العلم الذي يستمر تضرر الناس منه بعد موت صاحبه.

قال ﷺ:"من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئ"(٢٦).

وقال ﷺ:"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"(٢٧) وهذا ليس على سبيل الحصر، بل على سبيل الذكر لأبرز الأمثلة، بدلالة وجود أحاديث أخرى يمكن القياس عليها كل عبادة متعدية ما دام هناك من ينتفع بها.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:"إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علمه ونشره، وولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورَّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن سبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه من بعد موته"(٢٨)، وقال ﷺ:"من حفر بئر ماء، لم يشرب منه كبد حرى من جن ولا إنس، ولا طائر إلا آجره الله يوم القيامة، ومن بنى مسجداً كمفْحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتاً في الجنة"(٢٩).

ولمعرفة المسلمين في عصور النور بهذا الأمر، كانوا كالجسم الواحد، اختفت الفجوات، وتقلصت الفروق، وتقاربت المسافات، واختفى الفقر المدقع، حتى أنهم لم يجدوا من يأخذ الزكاة، فتحرر الرقيق، وبنيت البنية التحتية الخدماتية للناس، وتمتعوا بالطيبات.

وظهرت عشرات الأنواع مما نسميها اليوم بمؤسسات المجتمع المدني، كالجمعيات الخيرية بأنواعها، والمدارس والمعاهد العلمية والمكتبات الخاصة والعامة والمجالس والندوات العلمية القريبة من مراكز الدراسات والبحوث المعاصرة، وكذلك المستشفيات والمعاهد الطبية(٣٠)، وقد كتب عنها كثيرون، مثل: الجصاص: الأوقاف. ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء. ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء. النعيمي: الدارس في أخبار المدارس. د. أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام. د. أمين أسعد خير الله: الطب العربي.

وبجانب ذلك أوقفت أموال ضخمة لبناء المزارع والملاجئ والفنادق والخانات للمسافرين المنقطعين وغيرهم من ذوي الحاجة، ولبناء بيوت خاصة بالفقراء، والسقايات والمطاعم الشعبية، وبيوت للحجاج في مكة، وفي حفر الآبار وبناء الأسوار والقلاع والحصون، وفي إصلاح الطرقات والقناطر والجسور والمقابر، وإيجاد مؤسسات للقطاء واليتامى، وللمقعدين والعميان والعجزة، ولتحسين أحوال المساجين ورفع مستواهم وتغذيتهم بالغذاء اللازم لصيانة صحتهم، ولبناء مؤسسات لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم أو يخدمهم، ومؤسسات لتزويج الشباب والفتيات ممن تضيق أيديهم أو أيدي أوليائهم عن نفقات الزواج وتقديم المهور، وظهرت مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسكر، وبنيت المكتبات العامة والحدائق والمجالس والندوات العلمية. وقد عدد د. مصطفى السباعي أكثر من ثلاثين مؤسسة من مؤسسات الخدمة الاجتماعية الداخلة تحت نظام الأوقاف(٣١).

الثالثة: أنها أولى بالتقديم:

إذا استثنينا الفروض العينية، أي المطلوبة من كل شخص بعينه، فإن سائر العبادات اللازمة تؤخَّر إذا تزاحمت مع عبادات متعدية، من باب تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

ومن أمثلة ذلك على سبيل الذكر والعنونة: العلم أولى من التوسع في العبادة، خدمة حقوق الناس أفضل من صلاة التطوع كإصلاح ذات البين، والخدمات العامة للمحتاجين، والجهاد بمختلف صوره، بل تقدم أحياناً حتى على الصلاة المفروضة إذا مست الحاجة كأعمال الإنقاذ أثناء الطوارئ.

وتقدم كذلك طاعة الوالدين على النوافل، وعدل الحاكم بين الرعية ومتابعة شؤونهم أهم من التعمق في العبادة، وتقدم الوحدة بين المسلمين على بعض هيئات الصلاة، بل وبعض أركانها كالقيام عند من ذهب إلى أن الإمام إذا صلى جالساً صلى المؤتمون خلفه جلوساً، وكذلك فإن حرمة مال المسلم أشد من حرمة المسجد النبوي، وحرمة دمه أشد من حرمة الكعبة المشرفة، وأورد الفقهاء عشرات الصور في سياق تقديم العبادات المتعدية (حقوق الناس) على العبادات اللازمة (حقوق الله) وفصَّلوها في كتبهم(٣٢).

الأساس الثاني: المسؤولية الفردية وتنمية الحس الجمعي

من عظمة الإسلام جمعه بين الفردية والجماعية، حيث يرى أن المسؤولية بالدرجة الأولى فردية، ويطلق قدرات الفرد، لكنه الفرد المؤتلف، المنتمي إلى مجتمعه وأمته، وبهذه المعادلة، جمع الإسلام بين البصمة الخاصة بالفرد والكفيلة بالابتكار والاختراع والتجديد، وبين الحس الجمعي القائم على وحدة المنطلقات ووحدة المقصد، أي أن هذه المعادلة تجمع بين الحرية (الفردية) والوحدة (الاجتماعية)، وبالحرية والوحدة يمكن للمجتمع المسلم أن يطير نحو الكمال الحضاري الممكن، لأن هاتين القيمتين كفيلتان ببناء الكثير من القيم الإيجابية الدافعة نحو هذا العروج الحضاري.

إن المسؤولية فردية أمام الله تعالى يوم القيامة، لأن كثيراً من الواجبات يمكن للفرد أن يقوم بها حتى لو تخلى عنها الآخرون، لكن إقامة صرح المجتمع المؤمن يحتاج إلى تفعيل فروض الكفايات وتعظيم شُعب الإيمان، ومحاصرة الكبائر التي تنال من وحدة المجتمع وفاعليته، وخاصة في دائرة المسؤولية الاجتماعية التي نحن بصددها هنا، مما يجعل من الأهمية بمكان القيام بما يأتي:

١. استبعاد مفردات الثقافة الفردية:

الإسلام بثقافته العظيمة وإعجازه التربوي والتشريعي حريص على تميز أبنائه، وفي ذات الوقت على بقاء المشتركات التي تساعدهم على الائتلاف مع غيرهم، فعمد إلى ما يسميه علماء الاجتماع اليوم ببناء الشخصية، أي بناء الفرد المؤتلف، وهو الذي يجمع بين التميز في ذاته والتوحد مع غيره.

ومن المعلوم أن العرب كانوا مضرب المثل في الفردية، لكن الإسلام عندما جاء أبقى المفردات المرتبطة بالتميز والتفرد والتحرر والاستقلالية، وقضى على المفردات المؤدية إلى التنازع والشقاق والصدام، فانجبرت فردية العرب وتحولت إلى تميز مؤتلف، قال تعالى {لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٦٣]، ولعلمه تعالى أن هذه الفردية جزء من تكوين العرب، وأنها ستظهر بقدر ضعف تأثير الإسلام على العربي، فقد أمر الله بالوحدة غير الطامسة لخصائص الفرد وهي (الاعتصام)، فقال تعالى {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ

وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: ١٠٣].

وبالفعل عندما بدأ تأثير الإسلام يضعف، عادت الفردية تطل برأسها، حتى وصلت إلى سدة الحكم، حتى جاء من العلماء وتحت مبرر سد الذرائع من أجاز قيام شخص واحد بالاستيلاء على السلطة بالقوة، ومن أجاز انعقاد البيعة برجل واحد، ومن هؤلاء: أبو بكر الباقلاني وأبو بكر بن العربي والإمام أبو الحسن الأشعري والإمام الجويني وأبو يعلى الفراء(٣٣).

وحتى يظل الفرد المسلم فاعلاً إيجابياً، فقد حرص الإسلام على تجفيف منابع الفردية السلبية المتمثلة في ظواهر عدة، من أهمها:

أ – اتباع الأهواء العامة أو القطيع الاجتماعي:

الإسلام يفرق بين تنمية الحس الجمعي ــ الذي سنأتي إليه ــ وثقافة القطيع القائمة على الأهواء والتقليد بدون تبصر، ولذلك وردت في القرآن آيات عديدة تنهي عن اتباع أهواء الآخرين ورغباتهم، وتحذر من ذلك، مثل قوله تعالى {وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ} [المائدة: ٤٨]، {وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا} [الأنعام: ١٥٠]، {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ} [الشورى:١٥]،{اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} [الأعراف٣].

وعاب القرآن على الذين رفضوا الالتحاق بمسيرة الحق، انشغالاً بالسير مع القطيع، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} [البقرة: ١٧٠]،{إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} [لقمان: ٢١].

ب – حب الدنيا:

أوضح القرآن أن الله خلق الإنسان لعبادته، ومضمون هذه العبادة هو القيام بخلافة الله في استعمار هذه الأرض وفق منهجه وشرعه تعالى، بالتزام الأوامر واجتناب النواهي.

وهذا يعني أن الإسلام لا يعادي الدنيا، ولكنه يجعلها في يد الإنسان لا في قلبه، أي وسيلة لا غاية، وبهذا يجتمع في الفرد التميز والابداع والاجتهاد من ناحية، والتطاوع والائتلاف والتوحد مع غيره من ناحية أخرى.

أما إذا دخلت الدنيا إلى القلب، فإنها تقطع كل أواصر الفرد الاجتماعية، وتمزق كل استعدادته وطاقاته الائتلافية، وتطمس كل خصائصه الاجتماعية، وتجعله أنانياً جشعاً لا يهتم إلا بنفسه، ويدور حول فلك نفسه وليس في فلك الإسلام، فالحلال ما حقق المصلحة، والحرام ما وقف ضد تحقيق المصلحة الفردية.

وعلى المدى البعيد تتضخم القيم المحققة لمصلحة الفرد كالختل والمخادعة (البراجماتية) والمكر، وتتقزم الأخلاق الاجتماعية كالتعاون والشورى والإيثار والتسامح والحب، حتى يصل الفرد إلى تأليه ذاته، بتحوله إلى مشرع لنفسه، كما قال {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية:٢٣].

وفي هذا السبيل فإن الفرد تتضخم الأنا عنده حتى تصبح من العلو بمكان، بحيث تنظر إلى الآخرين بازدراء واحتقار، هذا التضخم يصير حالة مرضية لا تؤثر على صاحبها فقط بل على المجتمع برمته، لأنه في الأخير جزء من هذا المجتمع الذي شبهه المصطفى ﷺ بالجسد، ومن ثم فإن تضخمه شبيه بتضخم الكبد أو الكلية أو القلب في جسم الإنسان، فالتضخم هو الخطوة الأخيرة قبل الفشل الكبدي أو الكلوي أو الرئوي أو القلبي.

والتضخم الفردي هو سبب التنازع، وهو الطريق إلى الفشل، كما قال تعالى{وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: ٤٦].

جـ – التدين المنقوص:

والتدين المنقوص أو المغشوش هو حالة مرضية عامة، تسبب أعراضاً كثيرة وآلاماً عديدة، وما هو مرتبط بظاهرة الفردية المرضية التي نحن بصددها، يأتي نتيجة فهم بعض النصوص ذات الصلة بالموضوع بطريقة خاطئة، مثل قوله تعالى {أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى} [النجم: ٣٨ – ٤٠]، وقوله تعالى{وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا} [مريم: ٨٠].

والناظر في هاتين الآيتين وأضرابهما، سيلاحظ أنها تشير إلى الجزاء الأخروي، حيث سيحاسب كل فرد وحده، ولن يتحمل أحد وزر الآخرين، ولن يتحمل الآخرون وزره، وهذا مدعاة للشعور بالمسؤولية، لان تفلت المجتمع من القيام بوظائفه ليس مبرراً للنكوص والقعود، فالحساب الأخروي فردي.

أما الآيات التي تتحدث عن الجزاء الدنيوي، فهي تأتي بصيغة الجماعة، بمعنى أن غياب الجماعة التي ينبغي أن تؤدي الفرائض الكفائية مؤذن بحلول الخراب ومجيء الانحطاط اللذين حذر منهما القرآن تحت مصطلح الفتنة، قال تعالى{وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ٢٥].

إن سوء الفهم لبعض النصوص ذات الصلة بدور الفرد قد حدث من وقت مبكر، عندما حاول البعض أن يقعِّد لقعوده عن ممارسة دور إيجابي بالاستدلال بقوله تعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [المائدة: ١٠٥]، حدث هذا في عهد أبي بكر الصديق عندما ارتدت كثير من القبائل عن الإسلام، أو عن بعض فرائضه، حيث تصدى حينها الخليفة أبو بكر لهذا الفهم المنقوص.

عن أبي بكر الصديق ﷺ قال: يا أيها الناس إنكم لتقرؤون هذه الآية{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأنعام:١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:"إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه}[٣٤].

ومن التدين المنقوص، الفهم المغشوش في هذا السياق لأحاديث الفتن، حيث ينظر لها البعض كأنها قدر لازب، وما على المسلم إلا رفع الراية البيضاء وانتظار وقوع ما أخبر به النبي ﷺ رغم أن الأمر أقرب إلى التحذير ورغم أن المسلم مأمور أن يدافع أقدار الله باقدار الله.

د – السلبية والوقوف في خانة رد الفعل:

من الامور التي تطمس البصيرة الاجتماعية والشعور بالمسؤولية، ميل الفرد إلى الانطواء وممارسة السلبية وثقافة الخنوع، وترقب ما يصدر من المجتمع أو بعض أفراده ليشكل هوية رده، فإذا كان الفعل سلبياً كان الرد سلبياً، وقد حذر النبي ﷺ من الوقوع في هذه الوهدة عندما قال ﷺ:"لا يكونن أحدكم إمَّعة يقول: أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساؤوا أسأتُ، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا وأن أساؤوا أن تجتنبوا إساءاتهم"[٣٥].

وقال ﷺ:"ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قَطَعَت رَحِمهُ وصلها"[٣٦].

"إن أمتنا في حاجة إلى روح جديد يسري في كيانها، ينشئها خلقاً آخر، يغير فلسفتها ونظرتها إلى الحياة وإلى الأشياء ويبدل نمط حياتها الحالي المتواكل المتثائب، إلى نمط منتج فعال. إن المادية والأنانية والطفيلية والوصولية والانتهازية والنفعية وغيرها من الرذائل المدمرة يجب أن تطارد حتى تختفي من دنيانا. إن منكرات الارتجالية والعفوية والانهزامية والمحسوبية والشللية وألوان الغش التجاري والثقافي والتربوي والسياسي وغيرها من الآفات التي ذاعت وشاعت يجب أن تقاوم حتى تطهر ساحتنا منها"

"إن رذائل الفوضى واللامبالاة والتواكل والكسل والعجز والتسويف وضعف الانتاج وسوء الاستهلاك وتدمير المال العام كلها يجب أن تحارب كما يحارب الدرن والبلهارسيا وغيرها، بل هي أخطر على الأمم من كل الأمراض المتوطنة والوافدة"[٣٧].

ومحاربتها إنما تتم بتجفيف منابعها، وإيجاد الأوضاع والمناخات التي تمنع القابلية لاستزراعها، وإيجاد النباتات المضادة لها في دائرة إيجاد الفرد الايجابي.

٢. تنمية الشخصية الإيجابية الفاعلة:

عرفنا بأن المجتمع العربي اليوم يتكون في غالبه من أفراد لا أشخاص، لأن الفرد مشحون بغرائزه الأولية وطبائع الفجور والطغيان الكامنة في تكوينه قبل أن يتدخل الدين لتهذيب هذه الطبائع

والصفات، إضافة إلى أن طبيعة المجتمع العربي وبيئته الجغرافية المرتبطة بقسوة الصحراء وقلة الموارد، وبيئته الثقافية الجاهلية، أشعلت أوار الفردية.

وعندما جاء الإسلام انتقل بالكائن العربي من الفردية السلبية إلى الشخصية الإيجابية، ونحن اليوم بأمس الحاجة إلى معاودة الكرة إلى الإسلام حتى يعيد صياغة العربي من جديد.

وليتم هذا الأمر فإننا نحتاج إلى ما يأتي:

أ- الحرص على تكوين الأشخاص لا الأفراد:

الشخص كائن اجتماعي يملك استعدادات الائتلاف مع غيره والتعاون معهم، بعكس الأفراد. والشخص هو درجة متوسطة بين شحن الكائن بالصفات الفردية بصورة متطرفة تجعله أقرب إلى الوحش من حيث الأثرة، وبين التنشئة الاجتماعية المتطرفة التي تغطي على خصائص الفرد وبصمته المميزة وشخصيته المستقلة، مما يفقده كل قدرة على التميز والابداع، ليكون غثاء يسير مع القطيع الاجتماعي، وليكون لقمة سائغة للاستبداد.

إذاً التطرف في زرع الصفات الفردية يخلق الاستكبار والاستبداد، أما التطرف في سلب الفرد صفاته المميزة تجعله مشحوناً بمفردات الصَّغار والاستخذاء. وكل طرف يكمل الآخر في صنع محنة الأمة على كل الصعد ومنها صعيد المسؤولية الاجتماعية.

وكما يرى د. عبدالكريم بكار فإن طغيان الفردية في بلداننا الإسلامية أدى إلى انطماس المجتمع بوظائفه المعهودة، حتى صارت مجتمعاتنا مجرد تجمعات [٣٨].

وقد انصرف الإسلام إلى الجمع في كيان الفرد بين الحرية والوحدة، إذ اعتنى بصياغة"الشخصية الفردية صياغة اجتماعية، بحيث يحمل الفرد في أعماقه بذرة المجتمع وتصبح حياته الشخصية صورة مصغرة لبناء المجتمع، وبذلك تنتفي تلك الثنائية المتمثلة في فردية الفرد وجماعية الجماعة التي تعمق من انشطار المجتمع وتضاعف من انقسامه. كان علاج الإسلام الناجع لقضية الصراع بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة أن يسعى إلى نقل المجتمع إلى داخل الفرد بحيث يصبح الفرد دولة في نفسه داخل الدولة. وعن طريق الربط العضوي بين العبادة والعمل الدنيوي ومزج ما هو لله وما هو للناس بحيث تصبح الآخرة هدفاً من أهداف الدنيا وتصبح الدنيا سبيلاً لازماً لبلوغ الآخرة، عن هذا الطريق تتداعى الحواجز والسدود التي تقوم بين المثل الانسانية العليا وبين واقع التطبيق"[٣٩].

وقد حض الرسول ﷺ المؤمنين على الائتلاف مع غيرهم، فقال ﷺ:"المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس"[٤٠].

ونلاحظ العلاقة الوثيقة بين استعدادت الائتلاف عند الشخص وقيامه بالخدمة الاجتماعية، كما بينها الحديث النبوي.

وحول الشطر الأخير من هذا الحديث قال أبو الحسن الهاشمي:

الناس كلهم عيا ل الله تحت ظلالـــــــه فأحبهم طراً إليه أبرُهم لعيالـــــــــــه[٤١].

ب- المثاقفة والقراءة الكلية للنصوص:

إن أحد أهم مصادر الثقافة الفردية عند المتدينين هو القراءة الجزئية للنصـــوص، ولا يمكـــن أن يتكون الحس الجمعي والشخصية الإيجابية إلا بالقراءة الكلية لهذه النصوص، إضافة إلى المثاقفـــات والمناقشات التي تؤدي إلى تلاقح الأفكار وتعاضد الآراء وتكامل الحقائق، وخاصة في دائرة الحـــديث النبوي.

وقد حذر في هذا السياق د. عبدالحميد أبو سليمان من مناهج الفهم الحرفي للسنة النبوية، فقد أدت وما تزال"ــ إن لم تتضح الرؤية ويستقيم المنهج وطرق إعداد الكوادر العلمية ــ إلى الإضـــرار بثقافة الأمة، ويساعد على إشاعة الشعوذة والخرافة والسلبية والترهيب، ويعصف بـــالروح العلميـــة والجمعية، ويشوه الرؤية الكلية الكونية، ويقضي على روح التفكر والتدبر والمعرفة الإسلامية. فـــلا غرابة أن يصبح المسلم سلبياً عاجزاً مهمشاً وأن نرى على أرضه عالماً ــ في عامته ــ قد أصـــبح يحكمه الأموات، تحكمه الخرافات والأشباح، وإذا بالسنن والمقادير تعصف بها شعوذة المشـــعوذين، وهمهمة المهمهمين، وسحر السحرة والتمائم وموهوم سطوة عفاريت المردة والجان"[٤٢].

وينبغي أن تنطلق كل المساجلات والمثاقفات والحوارات من القرآن، من خلال تدبره، فهو الذي صنع الأمة من عدم، فأوجد الشعور بالمسؤولية الاجتماعية عند كل الأفراد، سواء كـــانوا ذكـــوراً أو إناثاً، حكاماً أو محكومين، حتى في عصور التراجع.

لقد كان ــ على سبيل المثال ــ الخليفة عمر بن عبدالعزيز، شديد الشعور بالمســـؤولية لكثـــرة تدبر القرآن وتلاوته له، فقد رأته زوجته فاطمة يوماً يبكي، فسألته عن سر بكائه، فقال لها: تقلـــدت أمر أمة محمد ﷺ فتفكرت في الفقير الجائع والمريض الضائع والعاري المجهود والمظلوم المقهـــور، والغريب المأسور، والكبير ذي العيال[٤٣].

ولما لقي هارون الرشيد الفضيل بن عياض قال له: يا حسن الوجه، أنت المسؤول عـــن هـــذه الأمة، حدثنا ليث عن مجاهد: {وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ} [البقرة: ١٦٦]، قال: الوصلة التي كانت بينهم في الدنيا. فجعل هارون يبكي ويشهق [٤٤].

وفي عصر الدولة العثمانية كان أكثر الخلفاء إحساساً بالمسؤولية أكثرهم قرباً من القرآن، وهذا أحد عظمائهم وهو محمد الفاتح الذي أثنى عليه الرسول ﷺ بوصفه فاتحاً لمدينة القسطنطينية، كـــان كثير التدبر للقرآن، مما أهله لاستنباط بعض المعاني الدقيقة في سياق الشـــعور بالمســـؤولية نحـــو رعيته، حيث كان كثير التفقد لرعيته، والتتبع لقضاياهم وحاجاتهم ومصالحهم، منطلقاً من قوله تعالى حكاية عن سليمان (ع):{وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ} [النمل: ٢٠] [٤٥].

جـ – الموازنة بين الأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية:

منظومة الأخلاق في الإسلام كبيرة وكثيرة وعظيمة، لكن هذه الأخلاق بالجملة تنقسم إلى قسمين: أخلاق فردية وأخلاق جماعية.

وحتى تستمر الخصائص الذاتية للفرد مع انتمائه لمجتمعه واهتمامه بالمصلحة العامة وتفاعله مع إخوانه بالفرح معهم والترح عليهم، يجب الجمع المتوازن بين كفتي ميزان الأخلاق.

ومن الأخلاق الفردية: إيثار الدائم على الزائل، الكرامة فوق القوة، الشعور بالمسؤولية، الاستقلالية في الحكم، السلوك الحكيم، الانفتاح وتقبل الجديد، الريادة والسبق (٤٦).

وإلى جانب هذه الأخلاق"هناك جملة من الأخلاق الاجتماعية التي يجب أن تشيع في المجتمع المسلم، لتشكل المحيط الذي تتغذى منه الأجيال الجديدة، وتتنفس فيه، وهي في الحقيقة كثيرة، منها: الإيثار والتعاون والعدل ومحاربة الظلم ومحاصرة الشر والفساد وتعود الشورى في عظائم الأمور وصغائرها، واحترام العمل والانتاج، والمحافظة على المرافق العامة"(٤٧).

هذا الجمع يحتاج إلى اهتمام بالمعنى أكثر من المبنى، فإن طريقة فهم بعض الأخلاق تكون سلاحاً ذا حدين، مثل خلق الزهد، فقد انطلق بعضهم من هذا الخلق إلى صور من الرضا والرضوخ والاستكانة والكف عن معاقرة الأسباب، بينما الوعي بقيمة الزهد يجعله انتقالاً من الأثرة إلى الإيثار، ومن الحس الفردي إلى الشعور الجمعي، بحيث يجمع الفرد بين الاكتساب والاحتساب (٤٨).

د– فتح مغاليق المجتمع:

من أعراض أزمة المجتمع الإسلامي اليوم ميل معظم أفراده إلى المطالبة بحقوقهم دون العمل على القيام بواجباتهم، مما يزيد من ظاهرة الفردية السلبية، وهنا لا بد للمسلم الحق أن يكون إنسان الواجب الذي يساهم في حل مشكلات المجتمع لا أن يضيف مشكلة جديدة، ويتطلب الأمر منه أن يلفت أنظار الناس إلى الممكنات التي أعمتها روح التشكي والبكاء على الأطلال السائدة في سائر الأوساط الاجتماعية، وأن يعمد إلى الإصلاح الإيجابي من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما صنع القرآن، مع ما يتطلب ذلك من تقديم البدائل وفق الممكن.

وإنسان الواجب بالتأكيد أنه إيجابي، حيث لا بد أن يسهم في إطفاء حرائق المجتمع، بممارسته لإصلاح ذات البين، {فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ} [الأنفال: ١] فالتقوى حق الله التي لا بد أن تثمر حق الناس، وهو هنا إصلاح ذات البين، لأنه يردم الفجوات، ويقيم الجسور، ويوطد العلاقات، ويمتن الأواصر، ويربط مكونات المجتمع باسمنت المحبة وحديد التفاهم، ولهذا فإنه من أفضل العبادات، حيث أن أجره عظيم، وأجاز تعالى من أجله ما لم يجز في غيره، قال تعالى {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ

مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١١٤].

٣. إبراز مفهوم الجسد الواحد للمجتمعات الإسلامية:

ينظر الإسلام إلى المسلمين على أنهم كيان واحد، يسميه القرآن أمة، والسنة تسميه جسداً أو بنياناً واحداً، قال تعالى{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [المؤمنون: ٩٢] وعبودية الأمة هي العبودية الكاملة لأنها تضم العبادات اللازمة والعبادات المتعدية، الفرائض العينية والفرائض الكفائية، واجبات التمكين الدنيوي وواجبات الفوز الأخروي، مع العلم أن هذه التقسيمات من باب تسهيل الفهم، وإلا فلا فصل بينها.

عن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:"ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضواً، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى} [٤٩].

ويبدو أن هذا الحديث يجمع في صياغة المجتمع الإسلامي بين التنوع والوحدة، فالجسم واحد متوحد، أهدافه واحدة، وحركته واحدة، لكنه يتكون من أعضاء متعددة، ومتنوعة في شكلها وحجمها وموقعها وأهميتها ووظائفها، لكنها في النهاية شيء واحد، إذا تعرض فيه عضو للضرر تضررت وتوجعت كل الأعضاء وسارعت للمقاومة والدفاع، ثم إن أي ضرر يصيب أي عضو سينال حتماً من وظائف الأعضاء الأخرى ويضعف المناعة الطبيعية للجسم عامة.

وعن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ: قال"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، ثم شبك بين أصابعه"[٥٠]، ونلاحظ في هذا الحديث أن الفرد لبنة في صرح المجتمع المسلم، وكلما كانت اللبنات قوية قوي البنيان، والعكس صحيح، وفي الحديث السابق، يكون الفرد خلية في الجسم، والتكوين الاجتماعي مهما كان، يكون عضواً، والعلاقة تكون تضامنية، فهل يمكن للمجتمع الذي يعي ذلك أن يبيت وفيه فرد يتوجع، أو كيان يتألم ؟ وهل يمكن أن يضيق أحد فيه برأي، أو يدعي أنه وحده من يمتلك الحقيقة المطلقة ويسفه غيره؟!.

ولأن المؤمنين خلايا في جسم واحد، ولبنات في بنيان موحد، فإنهم كما وصفهم الرسول ﷺ"المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته.."[٥١].

ولما كان من المستحيل أن يرفع عضو ــ في جسم حي وواعي ــ السلاح ضد عضو آخر أو ضد سائر الجسم، فليس مقبولاً أن يرفع المسلم سلاحه في وجه المجتمع المسلم، قال ﷺ:"من حمل علينا السلاح فليس منا"[٥٢].

ومن هنا جاءت دعوة المصطفى ﷺ للمحافظة على نظام المجتمع المسلم ومؤسساته، ولو كان فيها شيء من الغش والختل، إذ أن في ذلك محافظة على كينونة هذا المجتمع واستقراره، وليس حباً

في الحاكم إذا كان ظالماً أو مستبداً، قال ﷺ:"من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية"وفي رواية"من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإن من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية"(٥٣).

ومن المعلوم أن مصطلح الخروج في الحديث يراد به العصيان المسلح، أما النصيحة والاحتجاج، وإظهار عدم الرضى بأي طريقة سلمية، فهي مما عرفه السلف ومارسوه، مع اختلاف الوسائل والأساليب، إذا رأوا في الحاكم أي صورة من صور الانحراف.

وبهذا يكون الإسلام قد جمع لأبنائه بين التحرر والتوحد، بين التنوع والاعتصام، إذ أن الثقافة الفاعلة تستطيع توحيد التنوعات في لوحة بديعة تسر الناظرين كالخيوط الملونة (٥٤)، مع إيجاد الأرضية الخصبة لتراحم المجتمع وتعاطفه، وخلق الشعور بالمسؤولية الاجتماعية في قلوب الجميع، وخاصة من قبل العلماء نحو الجهلة، والأغنياء نحو الفقراء، والأقوياء نحو الضعفاء، والأصحاء نحو أصحاب الحاجات الخاصة، والمطيعين نحو العصاة، والمتذكرين نحو الغافلين!.

٤. إشاعة قيم الحس الجمعي:

حتى نصل إلى مرحلة الجسد الواحد، لا بد من التدرب على الشعور بالانتماء إلى هذا الجسم، والاهتمام بالثقافة الجمعية، وإشاعة القيم التي توقظ الحس الجمعي عند الأفراد، سواء بصورة مباشرة للتأثير على العقل الواعي، أو بصورة غير مباشرة للتأثير على العقل الباطن.

وفي مجال الاجتماع فإن القيم"هي الأفكار التي تحدد ما هو حسن مقبول وما هو سيء مرفوض، وهي متفق عليها بين غالبية أعضاء المجتمع ويولونها احتراماً عميقاً، ويعملون على استمرارها وتوارثها"(٥٥). وفي سبيل تحقيق هذا الهدف العظيم، لا بد من تحقق جملة أمور أهمها:

أ – تنمية النزعة الوحدوية:

ينبغي الاهتمام بكل ما ينمي النزعة الوحدوية في الفرد، ومشاعر الحس الجمعي، بكل الوسائل الممكنة. وفي سياق تأكيده على أهمية تفعيل الحياة الاجتماعية بكل صورها، بوصفها أداة لتفعيل دور الأمة في المستقبل، دعا المفكر القبطي د. رفيق حبيب (٥٦) إلى إحياء التقاليد العربية ــ وهو هنا لا يبتعد عن القيم الإسلامية رغم كونه مسيحياً ــ وإيقاظ الحس الجمعي، من خلال كل الوسائل الممكنة، بما فيها إعادة النمط الإسلامي في العمارة.

وقد أسلفنا في ذكر تميز العرب بالنزعة الفردية المتطرفة، وفي سياق دور هذه النزعة في التمكين للاستبداد، لاحظ الكواكبي أن الإنسان الشرقي عموماً أفضل من الغربي في الأخلاق الفردية، بينما يتفوق الغربي على الشرقي في الأخلاق الاجتماعية، وضرب عدداً من الأمثلة على ذلك (٥٧).

ومن أجل تعميق النزعة الجماعية والحس الوحدوي، ينبغي العمل على تحويل الثقافة والمظاهر إلى مشاعر، ثم إلى تقاليد راسخة وقيم محترمة، مع ملاحظة أن التفاعل الاجتماعي في مراحل الضعف قد ينشئ قيماً سالبة يتعارف على احترامها الناس، مع أنها قد لا تتفق مع مقاصد الإسلام، ومنها القيم المحيلة للمسلم من شخص اجتماعي إلى كائن فردي، يطالب بحقه ولا يهتم بواجباته، فنحن نريد الشخص المختلف عن غيره لا مع غيره، الشخصية المؤتلفة لا المختلفة، بحيث تكون له شخصيته المستقلة، الثمرة الاجتماعية ذات الحجم والوزن والطعم واللون الخاص، لكنها جزء من بستان المجتمع الإسلامي الذي يسر الناظرين !.

يقول د. مصطفى السباعي: من أبرز مظاهر الوعي في الأفراد شعورهم بحق الجماعة عليهم، وتصرفهم في حدود التعاون الاجتماعي، حتى يكون المجتمع كبناء متراص لا تجد فيه ثغرة ولا خللاً.. وبهذا المقياس يقاس رقي الأمم وخلود الحضارات وعظمة الديانات...فالدين الحق هو الذي ينمي فيك روح الشعور بحق الجماعة، والحضارة الخالدة هي التي تحمل أبناءها على الشعور بشعور الجماعة، والأمم الراقية هي التي تغلب الروح الجماعية على كل نزعة فردية وانعزالية في أبنائها"[٥٨].

وقد عمل الإسلام على بناء هذه النزعة حتى في شعائره التعبدية وخاصة الصلاة والحج والصيام، ففي الصلاة يكون المصلي جزءاً من جماعة منظمة واحدة، وحتى لو صلى منفرداً في بيته، فهو يؤدي نفس الأركان ويلتزم بنفس الشروط، ويتجه إلى ذات القبلة، بل وهو يقرأ الفاتحة خطاباً لربه {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥]، ودعاء {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [الفاتحة: ٦]، لا ينفك عن الشعور بالانتماء إلى جماعة المسلمين، فهو لا يخاطب الله كفرد، بل كجزء من الأمة.

ب – التشاور:

الحقائق تمتلك وجوه متعددة، وقدرات البشر محدودة، مهما كان علمهم، وقد يهتدي الصغير إلى ما لم يخطر على بال الكبير، ومن هنا جاءت قيمة الشورى وفرضيتها في الإسلام، إضافة إلى أنها تجعل الجميع يشاركون في صناعة القرار، فيساهمون بفاعلية لإنجاحه لأنه قرارهم أو مشروعهم، مع ما في ذلك من بركة تعود على الجميع ومن رهبة تصيب أعداء المسلمين.

يقول بديع الزمان النورسي: "إن الشورى الحق تولد الإخلاص والتساند، إذ أن ثلاث ألفات هكذا (ا ا ا) تصبح مائة وإحدى عشرة، ويخبرنا التاريخ بحوادث كثيرة أن عشرة رجال يمكنهم أن يقوموا بما يقوم به ألف شخص بالإخلاص والتساند الحقيقي والشورى فيما بينهم"[٥٩].

جـ- التسامح:

وكما أنه لا يمكن أن يشاور غيره إلا شخص وليس فرداً، فكذلك التسامح يأتي من شخص، لأن الشخص يعرف أن غيره يختلف عنه، وليس من الضروري أن يختلف معه لأنه مختلف عنه، لأن هذه طبيعة خلقته، وأنه لا يملك الصواب الكامل إلا رسول الله ﷺ بسبب نزول الوحي عليه.

وكذلك لأنه يحمل في قلبه من السماحة والبحث للآخرين عن أعذار الشيء الكثير، وتتجسد هذه الصفة أكثر مع الضعفاء والفقراء، ولذلك لم يكتف الإسلام بدعوة المسلمين إلى الإحسان إلى المساكين بل أمرهم بالحض على إطعامهم، معتبراً عدم القيام بذلك جريمة كبيرة يصح أن تقترن بالكفر بالله، قال تعالى{إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الحاقة: ٣٣ – ٣٤].

وحث القرآن المؤمنين به على إبداء أقصى درجات التسامح مع الغير، ولو كانوا مسيئين، ووصل الأمر إلى عدم الاكتفاء بالصفح، بل مقابلة الإساءة بالإحسان، قال تعالى {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: ٣٤]، مع مراعاة أن مصلحة المجتمع تقتضي أحياناً مقابلة السيئة بالسيئة، ولذلك قال تعالى {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} لكن هذا الأمر استثناء، والاستثناء يؤكد القاعدة ولا يلغيها.

ولعناية الإسلام الشديدة بالتسامح، دعا إليه حتى في البيع والشراء، قال ﷺ:"رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى"(٦٠). وتقاس عليها كافة المعاملات، ولذلك كره الإسلام الاستقصاء الشديد، فضلاً عن المخاصمة واللدد فيها، قال ﷺ:"إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم"(٦١).

د – العدل والمساواة:

لسنا بحاجة إلى الحديث عن مساواة الإسلام بين البشر في أصل خلقتهم، ونظرته العادلة إليهم جميعاً، ودعوته إلى إعطاء كل من يستحق ما يستحق وفق العدل المطلوب، مع التساوي المبدئي في كافة الحقوق والواجبات.

وسنكتفي هنا بإيراد حديث المخزومية الشهير الذي لم يرفض فيه المصطفى ﷺ الوساطة لشريفة قرشية من بني مخزوم فحسب، بل غضب أشد الغضب، وجعل تطبيق العقوبات على البعض دون البعض الآخر سبباً جوهرياً في سقوط الحضارات والأمم السابقة، حيث قال ﷺ:"إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد! وأيْمُ الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها"(٦٢).

ومن العدل أن يصعد إلى كافة المراكز والادارات والمسؤوليات من يستحقها، ولذلك جعل المصطفى ﷺ وضع الأكفياء في أماكنهم علامة على قوة المجتمع، بينما اعتبر أن المجتمع الذي يضع

الشخص في غير مكانه المناسب خيانة لله ولرسوله، كما في بعض الأحاديث، وجعله إيذاناً بدنو الساعة في حديث آخر قال في آخره رسول الله ﷺ:"إذا وُسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"(٦٣).

الجدير بالذكر أن بعض العلماء كالسيد رشيد رضا ذهبوا إلى أن المقصود بهذه الساعة، الساعة الحضارية لذلك المجتمع، وليس القيامة، لأن الأيام دول وفق الالتزام بمنهج الله وخاصة في العدل وحقوق الانسان{تِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران: ١٤٠].

هـ- نشر ثقافة الحب ومحاصرة ثقافة الكراهية:

الإسلام دعوة حب وشفقة ورحمة، وحصر الله الغاية من إرسال رسوله في الرحمة {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧]، وهو رحمة بكل المخلوقات بما فيها الحيوانات والجمادات، ولذلك ثبت في الحديث الشريف أن امرأة دخلت الجنة ــ وفي رواية رجل ــ لأنها سقت كلباً شربة ماء، بينما دخلت أخرى النار بسبب هرة حبستها فلم تطعمها ولم تسمح لها بالخروج للبحث لها عن طعام، فكيف تكون الرحمة بالإنسان إذاً ؟!.

وقد ربط الرسول ﷺ بين الإيمان وبين الحب، وهو الحب العملي لا الحب العاطفي أو اللفظي، حيث قال ﷺ:"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"(٦٤) وقال أيضاً:"لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"(٦٥).

ومن حرص الإسلام على ائتلاف القلوب، فقد حرم كل ما يثير الشحناء، ويفرق القلوب، حتى لو كان طاعة، مثل قراءة القرآن، قال ﷺ: اقرؤوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم عليه، فإذا اختلفتم فقوموا عنه"(٦٦).

و"من المعلوم بداهة وعقلاً أن المجتمع الذي يقوم على التعاون، ويتحقق بين أفراده التكامل، ويسود في أرجائه الشعور بالمحبة والإخاء والإيثار والأخوة، فهو مجتمع حصين متين متماسك، لا تؤثر فيه معاول الهدم ولا تزعزعه نكبات الأيام"(٦٧).

ولهذا أمر الرسول ﷺ بإفشاء السلام، والقول الحسن، وبشاشة الوجه، وإطعام الطعام، وإهداء الهدايا، وإخبار الشخص المحبوب، والمناداة بأحسن الألقاب، وشرع المزاح والمداعبة، كل ذلك وغيره من أجل نشر ظلال المحبة الندية بين المسلمين، فهل يمكن أن يتجاهل مجتمع هذا حاله مسؤوليته الاجتماعية نحو الفقراء والمعدمين والضعفاء والأيتام والأرامل والمرضى والمنكوبين وأصحاب الاحتياجات الخاصة؟!.

ومع ذلك فإن بناء الذات الاجتماعية المؤتلفة في الإسلام، لم يقف معها الإسلام عند هذا الحد، بل طالب بإقامتها بطريقة علمية، كما سنعرف في الأساس الثالث.

الأساس الثالث: تنمية الذات الاجتماعية المؤتلفة

من أجل معركة الابتلاء في هذه الحياة، خلق الله في فطرة الإنسان معرفته، مع حمله لمفردات الفجور وملكات التقوى، قال تعالى {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [الشمس: ٧ – ١٠].

وصور الفجور كثيرة، منها: الجهل، الظلم، حب المال، الطمع، الجزع، الهلع، حب البقاء والخلود، الشح، وغيرها، وكلها تنتصب كعقبات أمام شعور المرء بالمسؤولية الاجتماعية، ما لم يزك هذه النفس بالتربية، عبر تخليتها من الرذائل، وتحليتها بالفضائل.

وبهذا فإن الوصول إلى الشعور بالمسؤولية يحتاج إلى هذا الأساس المتين، الذي سيتضح من خلال الآتي:

١. اكتشاف وتوظيف المواهب الشخصية:

العبودية لله في هذه الحياة، هي بحجم هذا الكون، والخدمة الاجتماعية تحتل مكانة متميزة، لكنها أيضاً منظومة كبيرة فيها عشرات الوظائف التي تتوزع في الجانبين المادي والمعنوي، وليس في استطاعة أي انسان أن يفعل كل شيء، ولا يمكن أن يخلو من أي شيء.

وعليه فإن الإسلام يحث على اكتشاف موهبة كل شخص، حتى ياخذ مكانه في الثغر المناسب له في هذه الحياة، ضمن فرائض الكفايات. قال ﷺ:"اعملوا فكلٌ ميسر لما خُلق له"[٦٨]. ومع أن الحديث جاء في مناسبة معينة إلا أن العبرة بعموم اللفظ، والواقع يشهد بأن الشخص الذي يعمل في المكان الذي يتناسب مع فطرته ومزاجه وموهبته، فإن فاعليته تفوق غيره مرات عدة.

وأشار ﷺ إلى المواهب والفاعليات والكفايات النسبية المختلفة، فقال ﷺ:"الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا"[٦٩] وفي رواية"تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون خير الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية، وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، ويأتي هؤلاء بوجه"[٧٠].

ونلاحظ أن الرسول قيد الفاعلية بالفقه، وهو الفهم الدقيق، كما سيأتي. لأنه يبني الشخصية المبدعة القادرة، وفي المقابل حذر النبي ﷺ من أصحاب النفاق الذين يملكون أكثر من وجه، يتلونون كالحرباء، وفق مصالحهم الذاتية، أو بناء على مخاوف قد تكون وهمية، وهم أردأ الناس في معادنهم، وليسوا من تعارف عليه كثير من الناس على اعتبارهم كذلك، بسبب الثقافة الطبقية الدخيلة على الإسلام.

ووضح ﷺ أن أصحاب المواهب المتميزة والقدرات الفاعلة قليلون، فقال:"الناس كإبل مائـــة، لا تكاد تجد فيها راحلة"(٧١)، ومن ثم فإن عدم اكتشاف هؤلاء سيكون خسارة كبيرة للمجتمع الذي ينتمون إليه، فهي دعوة ضمنية إذاً للاكتشاف والصقل والتوظيف.

وكانت إحدى نقاط عظمة المصطفى ﷺ كرسول، وكقائد دعوة، وزعيم دولة، قدرته على اكتشاف مواهب أصحابه، وتنميتها وتوظيفها، فقد ركز مبدئياً على أصحاب المواهب والفاعليات، ولذلك تحملت تلك الأعداد اليسيرة من قدامى الصحابة أعباء الدعوة والدولة في وجه الدنيا كلها.

ومن يقرأ سيرة الصحابة سيدرك عظمة محمد ﷺ، وسيعرف أسرار تعيينه ــ مثلاً ــ مصعب بن عمير معلماً لأهل المدينة، وإرساله دحية الكلبي سفيراً إلى هرقل، واتخاذه من حذيفة بن اليمان حافظاً لسره، وإرساله عمرو بن أمية الضمري إلى ملك الحبشة، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقـــوقس فـــي مصر، وعبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس، وغيرهم إلـــى ملـــوك ومشـــائخ القبائـــل العربية(٧٢).

وانطلاقاً من ذات الوجه، اختار النبي ﷺ الأرقم بن أبي الأرقم كي يكـــون داره مقـــراً لاجتمـــاع المسلمين في المرحلة السرية، وأرسل معاذ بن جبل إلى اليمن، وعين خالد بن الوليد علـــى جـــيش المسلمين، رغم أنه كان حديث عهد بالإسلام(٧٣).

وفي عصر الخلافة الراشدة، سارت الأمور على هذا المنهج، وعلى سبيل المثال، عندما جمـــع الروم جيوشهم في بلاد الشام أرسل الخليفة أبوبكر الصديق إلى خالد في العراق أن يذهب على الفور إلى الشام رغم أن القائد هناك كان أبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومع ذلك رأى الخليفة أن الموقع بعد هذه المتغيرات، بحاجة إلى عبقرية عســـكرية كعبقريـــة خالد، ولذلك أرسل إلى أبي عبيدة بن الجراح يطلب منه أن يسلم القيادة إلـــى خالـــد، و جـــاء فـــي كتابه:"أما بعد، فإني قد وليت خالداً على قتال العدو بالشام فلا تخالفه، واسمع وأطع له. فإني يا أخي لم أبعثه عليك لأجل أنه عندي خير منك، ولكنني ظننت أن له فطنة في الحـــرب فـــي هـــذا المكـــان الحرج"(٧٤). وهكذا، فإن اكتشاف الميول والمواهب أمر ضروري، ولكنه غير كافٍ، فلا بد من الترقي الدائم لصقلها.

٢. ترقية الذات نحو كمالات الشخصية:

أودع الله في الإنسان قدرات لا حدود لها، في عالم الشهادة بالطبع، وخلـــق فيـــه اســـتعدادات الضعف وخصائص الفجور، كما أسلفنا، وبالتالي فإن الفرد بحاجة إلى تزكي دائم، سواء كان التزكي بمعنى التطهر من هذه الصفات السلبية (التخلية) أو بمعنى الاستزادة من الخبرات والعلوم التي تفجر الطاقات وتدفع الفرد إلى العمل والحركة (التحلية). وفي هذا السياق، يجب أن نذكر بثلاث نقاط:

أ- التعليم التقليدي لا يكفي:

مع أن قرابة نصف المسلمين يعانون من الأمية الأبجدية، إلا أن هناك جهوداً كبيرة تبذل في سبيل التعليم، لكنه بعامته تعليماً تقليدياً، سواء ارتبط الأمر بالمدارس الدينية التي تقلد غالباً طرائق السلف، أو بالمدارس العامة التي جلبت في عامتها أنظمة تعليمية من الغرب، وحاولت تطبيقها بحذافيرها، بل في بعض الأحيان، كانت المحاكاة قاصرة ومنقوصة، ومن ثم فإن التعليم تقليدي، ولهذا لم يؤت أُكله !.

وبسبب التقليد لهذه التجربة أو تلك، فإن التعليم في بلداننا يفتقر إلى الرؤية العامة والفلسفة الكلية والمقاصد (الاستراتيجية)، ومن ثم حدثت وتحدث صور من التآكل بين المواد والتخصصات والموضوعات، واتسعت الهوة بين العلم والعمل، وتحول الطلاب إلى مجرد آنية يصب فيها المعلمون ما حفظوه بدورهم، فأنى للإبداع أن يتأتى في مثل هذه البيئة؟.

يقول د. عبدالكريم بكار بصدق:"إن خلو الأمة من المثقفين والمفكرين العظام ــ أو قلتهم بحيث لا يبلغون الكتلة الحرجة ــ يجعل ثقافتها تنمو دون قيد أو توجيه، ويجعلها مليئة بالتناقضات والتداعيات اللامنطقية"(٧٥).

وفي كثير من الحالات، يتحول التعليم من حل إلى مشكلة، فكثير من الجامعات تُخرج (أشرطة كاسيت)، أو أميون بدرجة (بكالوريوس) و(ليسانس)، أي متعلمين مع وقف التنفيذ، ولذلك تقع مجاميع من هؤلاء ضحايا سهلة لدعاة الجحود (التغريب) أو الجمود (التقليد)، مما أوجد في أوساط مجتمعاتنا جيوباً للأمية الفكرية والثقافية مع حملها لأعلى الشهادات، وأحال مجاميع أخرى إلى (قنابل موقوتة) تنفجر جنوحاً وجموحاً، حيث التطرف في جهتيه، وإذا وجدت الظروف المناسبة فإن هذا التطرف يتحول إلى عنف وإرهاب، كما حدث ويحدث في كثير من المجتمعات الإسلامية.

ب - التعلم أهم من التعليم:

يجب الاتفاق أولاً على أن"التعليم التلقيني الذي أدمناه من مرحلة الروضة إلى مرحلة الجامعة أوجد متعلماً انفعالياً واتكالياً ينتظر المساعدة من الأستاذ تارة، ومن الأب تارة ثانية، ومن الكتاب تارة ثالثة..."

وإن"الاستجابة لمتغيرات العصر في هذا المجال، تتطلب من المرء أن يؤهل نفسه لاكتساب القدرة على التعلم الذاتي، ومواصلة إخصاب مواهبه وتوسيع مداركه، وصقل مهاراته، بالإضافة إلى القدرة على تحليل المعلومات الواردة، واستخلاص المغازي والدروس منها، من أجل توسيع قاعدة الفهم لديه"(٧٦).

تتوافر للتعلم مزايا لا يمتلكها التعليم، أولها: أنه ذاتي، دافعه داخلي، ثانيها: أن صاحبه سيكون حريصاً على الفهم، ثالثها: أنه مستمر، لأنه ليس مرتبطاً بالحصص والصفوف والمراحل الدراسية المحدودة، ولهذا فإن مناهج التعليم الحديثة تركز على إكساب الطالب مفاتيح التعلم وإعطائه منهج التعليم، أما التعلم فيقوم به الطالب نفسه.

وهذا يؤدي إلى إيجاد المثقف المستوعب لتخصصه، المدرك لواقعه، البالغ أقصى درجات الفاعلية والكمال المقدرة له، وهو ما نحتاجه في ميادين حياتنا.

إن"المثقف ــ أو المفكر ــ الذي يتحمل مسؤولية الريادة الاجتماعية هو ذلك المتعلم الذي تجاوز مرحلة تكديس المعلومات في ذاكرته إلى مرحلة الوعي الكامل بترابطاتها وتداعياتها وأساليب التوليد منها ونتائج تطبيقاتها، أي يكون متجاوزاً لها ومالكاً لناصيتها لا أسيراً لمنطوقها ودلالاتها المباشرة"(٧٧).

جـ – إطلاق قوى العقل للفقه والتفكير:

يمتلك العقل سبع قدرات أدناها الذاكرة، وهي التي يركز عليها التعليم التقليدي، لكن فاعلية الفرد مرهونة بتفعيل طاقاته العقلية كافة، وصولاً إلى الفقه، ثم ممارسة التفكير.

والفقه: حسن إدراك الأمر وفهمه. وفقه الأمر: تفهمه وتفطنه (٧٨) والفهم هو حُسن تصور المعنى، وجودة استعداد الذهن للاستنباط. وفهمه فهما: أحسن تصوره، وجاد استعداده للاستنباط (٧٩).

وربما كان الفهم هو المراد بقوله ﷺ:"إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين وألهمه رشده"(٨٠).

وعندما نفتح كتب العربية وقواميسها لمعرفة معنى الفكر، سنجده قريباً من هذا المعنى. فالفكر: إعمال الخاطر أو النظر في الشيء. والتفكر: التأمل. وفيكر: كثير الفكر (٨١) وفكر في الأمر فكراً: أعمل العقل فيه ورتب بعض مالم يعلم ليصل به إلى مجهول. وفكر في المشكلة: أعمل عقله فيها ليتوصل إلى حلها، فهو مفكر (٨٢) وهو: ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول (٨٣).

وأول ما ينبغي فقهه هو القرآن، ولذلك شرع الله التدبر، وصولاً إلى ذروة التفكر، قال تعالى {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} [البقرة: ٢٦٦]، والتفكير هو ضمانة الفهم وهو الذي ينقل المعلومة من منطقة الشعور إلى منطقة اللاشعور، وهذا يضمن عدم حصول انفصام بين الأقوال والأفعال، فالانفصام يأتي نتيجة بقاء المعلومة الجديدة في الشعور، بينما يصدر سلوك الإنسان عن المعلومات الموجودة في منطقة اللاشعور (٨٤).

التفكير إذاً يهضم المعرفة، ويحللها، ويضيف إليها، ويوظفها مستفيداً منها، حتى تصبح جزءاً من الشخصية لا منفصلة عنها وعبئاً عليها، وستظهر آثار هذا التفكير من خلال القدرة على النقد والتقويم، وعلى التحليل والتركيب، وعلى الاستقراء والاستنباط، وكلها عمليات عقلية ضرورية للوصول إلى مرحلة الإبداع والابتكار، حيث السنة الحسنة التي تدر على الإنسان حسنات حتى بعد

مماته على قدر المستفيدين منها، كما قال ﷺ:"من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن يُنقص من أوزارهم شيء"(٨٥).

وهذا لأن التفكير الإبداعي سلاح ذو حدين، وعمل متعدي، فيمكن أن يأتي بأفضل المشاريع أو بأسوئها، ولذلك إما أن يدر أفضل الأجور أو يجر إلى أسوأ الأوزار !.

٣. عدم الانزلاق إلى احتكار الحقيقة:

من الفوارق بين التعلم الإبداعي القائم على التفكير وإعمال الطاقات الذاتية، وبين التعليم التلقيني، أن الأول يفهم ولا يمكن قياس الفهم تماماً، ولذلك فإن الفاهم يعذر الآخرين، ولا يعتقد أنه يملك الحقيقة على إطلاقها، بعكس الحافظ الذي يظن أنه بحفظه لبعض المرويات قد امتلك الحقيقة المطلقة.

ولحذر علماء السلف من الوقوع في هذه الوهدة، فقد كانوا عند سوق آرائهم، يستخدمون عبارات لا توحي بالجزم واليقين، مثل"نظن أو يغلب الظن، أو في ظاهر الامر، أو فيما نحسب"ويروى في هذا السياق عن الإمام مالك أنه كان عندما يفتي في مسألة كثيراً ما يردد قوله تعالى{إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ} [الجاثية: ٣٢] (٨٦).

وكان الإمام الشافعي مع تقليبه وتمحيصه للرأي أو الموقف الفقهي الذي يتبناه، يقول: قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب! ونلاحظ أنه يقول: قولي، وليس كما يفعل أنصاف وأرباع المتعلمين الذين يعتبرون آراءهم ديناً، ولأن دين الله هو الحق، {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ} [يونس: ٣٢]، ومن ثم تبدأ مرحلة التسفيه والتفسيق وربما التكفير للمخالفين. ولهذا حذر الرسول ﷺ من التفسيق والتكفير والتضليل والاتهام والظن بالآخرين ظن السوء، في أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: ــ"لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك"(٨٧). ــ"إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكُهُم"(٨٨). ــ "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث،ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا"(٨٩) وفي رواية أخرى حرم رسول الله ﷺ هجر المسلم أخاه المسلم فوق ثلاث أيام (٩٠).

٤. الاتجاه بطاقة النقد إلى الذات:

أطلق القرآن على تنمية الذات مصطلح التزكية: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا} [الشمس: ٩]،{قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى} [الأعلى: ١٤] والتزكي في اللغة ياتي بمعنى التطهر وبمعنى الزيادة، وفي كلتا الحالتين لا بد من إعمال طاقة النقد الذاتي.

وعندما ندرس تجربة آدم ﷺ في الجنة سنجد أن الله قبل توبته ووفقه إليها، ولم يوفق إبليس إلى هذه التوبة، لأن آدم مارس نوعاً من النقد الذاتي هو وزوجته عندما قالا چ ب ب بچ الأعراف:

٢٣فقد نسبا الظلم إلى نفسيهما، أما إبليس فقد نسب الظلم تحت مسمى الغواية إلى الله عزوجل:{قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي} [الحجر: ٣٩].

والمؤمن الذي ينقد نفسه هو الكيِّس كما سماه ﷺ لأنه يستطيع الترقي في مدارج الكمال، قال ﷺ:"الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله"(٩١).

وأفضل أداة لممارسة الإنسان النقد الذاتي بناء عليها هو القرآن الكريم، فقد كان السلف الصالح متفوقين في هذا المضمار، حيث كانوا يعرفون أقدارهم، ويمارسون الرقابة على أنفسهم، وينتقدون ذواتهم من خلال معيار القرآن وآياته (٩٢).

وإذا لم يتجه الفرد بطاقة النقد إلى ذاته، فإنه سيزكي نفسه، وهو أمر منهي عنه شرعاً {فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: ٣٢] فالنقد يصعد بالشخصية إلى الأعلى، والتزكية تنزل بها إلى الأسفل، وربما كان هذا الأمر من حكم جعل الله (النفس اللوامة) بين (النفس الأمارة بالسوء) و(النفس المطمئنة)، كأن ممارسة النفس (اللوامة) لدورها يصعد بها إلى ذرى الطمأنينة، وتركها لهذا اللوم أو النقد ينزل بها إلى دركة النفس الأمارة بالسوء!.

ولا تقف المشكلة عند هذا الحد، لأن الإنسان يمتلك طاقات كبيرة في المراقبة واللوم والنقد، فما دام قد توقف بها عن مراقبة عيوب نفسه، فإنه سيتجه بها إلى الآخرين، ظناً واتهاماً، وتفسيقاً وتبديعاً، وربما تضليلاً وتكفيراً.

ولهذا فإن الوجه الآخر لعملة النقد الذاتي هو البحث للآخرين عن أعذار، حتى يظل المرء في حالة من الترقي، وحتى يكون أهلاً لتنزل رحمة الله ومعونته، يقول الإمام ابن قيم الجوزية:"وهو سبحانه وتعالى رحيم يحب الرحماء، وإنما يرحم من عباده الرحماء... وقابل المعاذر، يحب من يقبل معاذير عباده، فمن عفا عفا عنه، ومن غفر غفر له، ومن سامح سامحه، ومن حاقق حاققه، ومن رفق بعباده رفق به، ومن رحم خلقه رحمه، ومن صفح عنهم صفح عنه"(٩٣).

وهذا لا يعني أن لا يمارس المؤمن النقد للظواهر السلبية حوله، لكن ينبغي أن يركز على نفسه أولاً، وفي نقده للآخرين يتأكد من نيته، ومن حسن أسلوبه بحيث يكون بنَّاءً لا هدَّاماً، وينبغي أن يتجه نقده إلى الأعمال لا إلى الأشخاص، وإلى السلوكيات لا إلى النيات.

ومما يحتاج إلى نقد في هذا السياق الجنوح الذي حدث في بعض قضايا ومفردات الثقافة الإسلامية، حيث أن كثيرا من الدوائر المتسعة ضاقت، مثل القيم والأخلاق التي أعطيت بعداً فردياً وسحب منها البعد الاجتماعي، كالأمانة مثلاً، فقد صارت حكراً على المال الذي يتركه الشخص عند غيره، وكادت أن تخرج صور كثيرة من الأمانة ذات الصلة بالمسؤولية الاجتماعية.

الأساس الرابع: التعامل الموضوعي مع الآخرين

الموضوعية هي التحرر من تأثير العوامل الذاتية ومن ضغوط الشخصية المقابلة له، سواء كانت إيجابية أم سلبية، وذلك في رحلة البحث عن الحقيقة، بحيث يتركز النظر على الأفكار بكل تجرد وإنصاف، ويتم الحكم عليها من هذا المنظور.

وقد عرَّف د. بكار الموضوعية بأنها: مجموعة من الأساليب والخطوات والأدوات التي تمكننا من الوقوف على الحقيقة، والتعامل معها على ما هي عليه، بعيداً عن الذاتية والمؤثرات الخارجية(٩٤).

ويؤكد أن"فقدنا للموضوعية في التعامل مع الأفكار والمواقف والأشخاص والأشياء كان من أكبر العوامل التي أدت بنا إلى التخلف والتفكك والتنازع في تاريخنا المديد (٩٥)

وفي رحلته الفكرية العميقة بدأ بتشخيص علل الأمة من خلال مشروع سماه"الرحلة إلى الذات"كان حجر الأساس فيه معالجة الموضوعية من خلال كتابه الأول في هذه السلسلة، وهو"فصول في التفكير الموضوعي ــ منطلقات ومواقف"، وعلل هذا البدء بقوله: لأنني أعده الخطوة الأولى على طريق الوعي بالذات، وعلى طريق إدراك جذور كثير من انحرافنا وأسبابه ومظاهره"(٩٦).

إذاً، الموضوعية تجعل صاحبها يركز على الموضوع، محكماً عقله، أما الشخصانية فهي تجعل صاحبها يركز على الشخص محكماً عاطفته، ومن ثم تتلون رؤيته لفكر الشخص أو الجهة بمدى حبه أو كرهه له أو لها، مع ما في ذلك من تفويت لكثير من المصالح لأنها جاءت ممن لا نحبه، وقبول لكثير من المفاسد لأنها جاءت ممن نحبه.

وبالتأكيد أن تداعيات هذه المعضلة ستتغلغل في كافة نواحي الحياة، بما في ذلك المسؤولية الاجتماعية، ولذلك فإن الموضوعية أساس من أسسها، كما أنها أساس مطلوب في كل المشاريع والأعمال والأفكار حتى تكون ناجحة وفاعلة.

وسيعالج هذا الأساس قضيته من خلال النقاط الآتية:

١. تقدير التخصصات والخبرات:

التفكير والموقف الموضوعيان يقتضيان من صاحبهما الانحياز إلى التخصصات والخبرات التي بها تتحقق غاية من غايات خلق الإنسان وهي عمارة الأرض{هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: ٦١] أي طلب منكم عمارتها، والأقدر على عمارة الأرض هو الأصلح لوراثتها والتمكين فيها، كما قال تعالى {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء:١٠٥].

قال تعالى{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ١٤٨]، أورد الإمام الرازي عدداً من التفاسير لهذه الآية في سياق

الحديث عن الصلاة والكعبة وتغيير القبلة [٩٧]، لكن هناك ما يشير إلى احتمال الآية لمعنى الدعوة إلى التسابق في عمل الخيرات من خلال التخصصات العلمية والعملية التي تقدم الخدمة لبني الإنسان، طباً وهندسة وزراعة وثقافة وأدباً وفناً وتصنيعاً. فقد قال ــ أي الإمام الرازي ــ في تفسير:"هو موليها": أي قد زُينت له تلك الجهة، وحُببت إليه، أي صارت بحيث يحبها ويرضاها"[٩٨]، ويتفق هذا المعنى مع معنى الحديث الذي أوردناه من قبل، وهو قوله ﷺ:"اعملوا فكلٌ ميسر لما خُلق له"[٩٩].

صحيح أن هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب أو المناسبة، وكأن الله يلفت أنظار المسلمين في هذه الآية التي جاءت في هذا السياق إلى العبادة بمفهومها الشامل في محراب الحياة، حيث العلاقة الوثيقة بين العبادة الشعائرية في (محراب الصلاة) والعبادة العملية في (محراب الحياة)، مثل قوله تعالى {تَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [البقرة: ١٩٧].

وقال تعالى في آية مشابهة {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً} [الإسراء: ٨٤]. قال ابن عباس ﷺ: على ناحيته. وقال مجاهد: على حدته وطبيعته. وقال قتادة: على نيته وقال ابن زيد:دينه[١٠٠]. وهكذا فإن تعدد هذه الأقوال والحاجة إلى تأصيل التخصصات في هذه الحياة، يسوغان القول: على تخصصه. وهو قريب من تفسير حبر هذه الأمة وترجمان قرآنها عندما قال:على ناحيته.

وأورد لنا القرآن في إحدى قصصه موقفاً يجسد وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ضمن قصة نبي الله يوسف ﷺ، قال تعالى {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [يوسف: ٥٤ – ٥٥] فقد ائتمن الملك يوسف وفوضه في اختيار ما يريد من المناصب والمسؤوليات، فاختار ما رأى أنه أقرب إلى إمكاناته ومواهبه، وما رأى أنه أنفع للناس، نتيجة الرؤيا التي تشير إلى قدوم سبع سنوات عجاف، ومن ثم فإن الناس بحاجة إلى صاحب قدرة وأمانة لإدارة اقتصاد البلد حتى يوجد الاحتياط الغذائي لمواجهة محنة السنوات السبع القادمة لها، وقد رأى يوسف عليه السلام أنه أهل لهذه المكانة، فرشح نفسه لها قائلاً: {إِنِّيْ حَفِيْظٌ عَلِيْمٌ}، إذ أن الحفظ عنوان للأمانة،والعلم عنوان للقدرة والخبرة. ويكفي أن نعرف مقدار تقدير الإسلام للخبرة، من خلال قوله تعالى{وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [فاطر: ١٤].

وقد أسلفنا في بيان شيء من عناية الرسول ﷺ باكتشاف مواهب أصحابه وتوظيفها، ونضيف هنا نصاً واحداً يجسد دراية الرسول ﷺ بأصحابه، ومعرفته بنقاط قوة كل واحد منهم، حيث كان يضع كل واحد منهم في مكانه المناسب له تماما.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأقضاهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي بن كعب، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح"(١٠١).

ولا يشك عاقل في أن"مما يعين على تحصين الثغور، واتساع رقعة نشر الخير: أن يكون لأهل الخير نصيب من المشاركة في التخصصات العلمية التي تعود بالنفع على المجتمع والأمة. وذلك كالطب والصيدلة والهندسة والمحاسبة وما شاكل ذلك"(١٠٢).

ولكي نحسن معرفة التخصصات وتقدير أصحابها، لا بد من الانفتاح على الجميع، وأن يكون عندنا من الإنصاف ما يكفل الاعتراف بما عند الآخرين من محاسن وقدرات ومواهب، وهذا ما سنعرج عليه قليلاً في الفقرة الآتية.

٢. إنصاف الآخرين:

من علل التدين عند أهل الكتاب، مجانبتهم للموضوعية بكل صورها، ومن ذلك الدوران حول الأشخاص لا الأفكار، مما كان أحد أسباب الانحراف وأحد منابع الضلال، فقد احتفى اليهود بعزير لأنه مات مائة عام ثم بعثه الله، واحتفى النصارى بعيسى لأنه جاء من غير أب وتكلم وهو ما زال في المهد، لكن هذا الاحتفاء تحول من الفكرة التي جاءت خوارق العادات من أجلها، إلى الأشخاص، أي أن الوسيلة تحولت إلى غاية، ولذلك وصلت المبالغة في الاحتفاء بعزير وبعيسى عليهما السلام إلى حد التقديس والادعاء بأنهما ينتسبان إلى الله برباط النبوة، قال تعالى {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ} [التوبة: ٣٠] وهكذا فعل من بالغ في تقديس الأشخاص، سواء كانوا أنبياء أو أولياء مصلحين أو علماء مجددين، من قبل عزير وعيسى ومن بعدهما.

وكانت في سيرة الصحابة قد ظهرت بوادر من قبل بعض صغارهم في هذا السياق من باب حب المصطفى ﷺ الذي سيطر على شغاف قلوبهم، لكن الرسول ﷺ كان لهذه المحاولات البسيطة بالمرصاد، حيث وأدها في مهدها، وحذر من أي صورة من صورها، مثل لعنه لمن اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ونهيهم عن القيام له وتعظيمه، وكان يجلس كما يجلس العبيد ويأكل كما يأكل العبيد، ويجلس حيثما ينتهي به المجلس، ويمشي في الأسواق، ويأكل ألذ الأطعمة ويجوع حتى يضع على بطنه حجراً، ويستشير أصحابه، ويداعبهم ويمزح معهم.

ومن أجل أن يكون المؤمن منصفاً، فقد جعل القرآن من صفات المؤمنين الأساسية النظر دوماً إلى القول لا إلى القائل، وإلى الموضوع لا إلى الواضع، قال تعالى {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} [الزمر: ١٨].

وفي سياق الإنصاف والموضوعية، نهى القرآن عن نكران محاسن الآخرين مهما كانوا، وعن بخس مواهبهم ونقاط قوتهم، ومزاياهم الوهبية أو الكسبية، قال تعالى{وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ} [الأعراف: ٨٥].

ولما كانت العواطف عاملاً أساسياً في التأثير على حياد المرء وعلى إنصافه وموضوعيته، سواء في دائرة الحب أو الكره، فقد حرم القرآن الاستجابة للعواطف والانفعالات، وأوجب عقلها بتوجيهات الشرع ومقاصده، قال تعالى {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ} [المائدة: ٢].

وللعلم أن هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن مشركي مكة الذين كانوا قبل نزول هذه الآية قد منعوا المسلمين من دخول مكة للعمرة وصدوهم عن المسجد الحرام، الذي كانت تقاليد الجاهلية تنهى عن الصد عنه، فحتى لا يكون ذلك مبرراً للمسلمين لاجتياح مكة واستباحة ما حرم في ظرفي:الزمان (الأشهر الحرم) والمكان (مكة المكرمة) نزلت الآية التي لم تكتف بذلك بل دعت المسلمين إلى التعاون على تعظيم حقوق الله (التقوى)، وعلى تعظيم حقوق الناس (البر)، وختم الله ذات الآية بالتحذير من عدم الالتزام بهذا النهي"ولا يجرمنكم"وهذا الأمر"وتعاونوا"، فقال:{وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: ٢].

وفي الآية الثامنة من ذات السورة أكد الله على معنى القسط والانصاف بقوله تعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: ٨]، ولاختلاط الدوافع الشخصية بالإيمانية عند التعامل مع الخصوم والأعداء وربما المنافسين، قال تعالى {كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ} وأكد على معنى العدل والانصاف بالقول{شُهَدَاء بِالْقِسْطِ} ثم جاء النهي عن الظلم بسبب الاستجابة لدواعي الثأر والكره{وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ} وأخبرهم أن التقوى تتطلب عدم الظلم{اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} وختم الآية بمثل التحذير الوارد في الآية السابقة.

الجدير بالذكر أن هاتين الآيتين المركزيتين في قيمة العدل وردتا في سورة (المائدة) وهي أكثر سور القرآن تعرضاً لانحرافات أهل الكتاب، حيث يمكن اعتبارها فاضحة أهل الكتاب، مثلما أن (التوبة) فاضحة المنافقين، وهذا سر آخر، حتى لا تتغلب مشاعر الكراهية والاستنكار على قيمة العدل، بحيث تنتصب هذه المشاعر جسوراً للعبور إلى ظلم أهل الكتاب والمشركين وبخس أشيائهم وهضمهم حقوقهم كأخوة في الانسانية.

ومن العوامل المساعدة على الانصاف مع الآخرين إدراك نسبية الكثير من الأمور الخارجة عن نطاق الثوابت التي عُلمت من الدين بالضرورة، أي أن الآخرين قد يمتلكون شيئاً من الحقيقة أوالصواب أو المصلحة.

وأشار القرآن إلى وجود بعض الخير في الكثير من الشر، كما في قوله تعالى{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى} [النجم: ٣٣ – ٣٤]، وفي قوله تعالى{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [الحاقة: ٤١ – ٤٢]، وفي قوله تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا} [البقرة: ٢١٩].

وقد ظلت الموضوعية من ثمار الالتزام بمنهج الإسلام، وكلما خَفَتَ هذا الالتزام وخبا، علماً وعملاً، تآكلت قيم الموضوعية، وحلت محلها الذاتيات والعواطف والانطباعات والانفعالات، التي جَرَّت إلى حلول الأشخاص محل الأفكار، والأفراد محل المناهج، مما أوجد التعصب الذي خرجت من رحمه الطوائف والفرق التي مزقت شمل المسلمين وبددت هيبتهم، وصرفت طاقاتهم في معارك لم يكسب من ورائها إلا العدو المتربص بالأمة الدوائر.

وفي سياق تأصيل الإمام الشاطبي للاعتصام بحبل القرآن ومنهج النبي ﷺ في فهمه وتطبيقه، لاحظ انشداد مجاميع من أهل التدين وأصحاب العلم إلى الشيخ أو المذهب أو الطريقة على حساب النصوص، وخاصة في أوساط الشيعة والصوفية [١٠٣].

وفي هذا العصر ندد كبار المفكرين بظاهرة الخلط بين الأفكار والأشخاص، محذرين من عواقب هذا الخلط، ومؤكدين على أن المنهج فوق الأشخاص [١٠٤]. وأكد أحدهم أن القرآن بنى الخلفية التاريخية للموضوعية من خلال: الحث على معرفة حدود الذات، التثبت، نبذ الآبائية، إنصاف الناس وعدم هضم حقوقهم، النظرة التفصيلية، نقد الذات، المرونة الذهنية [١٠٥].

وفي سياق معالجته لظاهرة"دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين"لاحظ د. عبدالمجيد النجار أن غياب الموضوعية أحد أسباب التمزق الفكري القائم اليوم، ولذلك فإن"الموضوعية"أحد الأركان الخمسة التي تقوم عليها الوحدة الفكرية بين المسلمين، وأكد هذا الأمر بقوله:"وحينما يستبعد الناس في منهاج المعرفة العوامل الذاتية، ويحتكمون إلى الموضوع بحسب معطياته، فإنهم يتوصلون إلى الرؤى والأحكام الموحدة التي يفرضها الموضوع، ويشكل ذلك بينهم قاعدة مشتركة في تدبير حياتهم"[١٠٦].

وهكذا، فإن المؤمن الحق موضوعي، متجرد، محايد، ومنصف، لأن الله أمره أن يكون كذلك، ولأن شريعة هذا الدين العظيم عرفت كيف تعالج دخائل نفوسهم، وكيف تهذب طبائعهم الغرائزية، وكيف تسمو بهم نحو الأعالي، بحيث تنجذب عقولهم نحو الأفعال لا الفاعل، ونحو الأقوال لا القائل، ولذلك فإنهم أحرص الناس على تحكيم العقل الملتزم بمقاصد الشرع، فما وجدوا من خير أخذوه، وما وجدوا من فساد أو شر ردوه، مهما يكن الفاعل أو القائل {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} [الزمر: ١٨] لأن قواعد الإسلام لا تقبل إلا ما هو أحسن من الأقوال والأفعال، ولذلك فإن مسك ختام الموضوعية هو الاستفادة من الآخر.

٣.الاستفادة من الآخر:

بسبب كون الإسلام ديناً خاتماً وعالمياً، فإن الله جمع له بين ثبات المقاصد والكليات والأصول والقطعيات، وتغير الوسائل والجزئيات والفروع والظنيات، وعندما نقيس مساحة الثوابت فسنجد أنها ضيقة ومتناهية (محدودة)، أما المتغيرات وهي المساحة المرنة فهي عريضة جداً وغير متناهية، من أجل أن يستوعب الإسلام كل متغير، ويجدد كل قديم، ومن أجل أن ينجح في التصدي للتحديات الطارئة، ويجيب عن الأسئلة الناشئة عن إيقاعات الحياة، وعلائق الناس، وطوارئ الأيام، وتقلبات الأحداث، واختلاف المشاكل، وتعدد الكيانات، وثراء العادات والأعراف.

ومن مرونة الإسلام أن منطقة المتغيرات فيه يجوز ــ بل يجب ــ فيها الاجتهاد، من أجل الابتكار والتجديد والابداع، سواء تعلق الأمر بالابتكار الذاتي، أو الاستفادة من تجارب وخبرات الآخرين.

لقد أمر الله المسلمين وفيهم المصطفى ﷺ أن يسألوا أهل الكتاب إذا طرأ لهم ما لا يعرفونه، فقال تعالى {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [الأنبياء: ٧] وكررها بالحرف الواحد في سورة [النحل:٤٣]. وكلتا الآيتان وردتا في سياق الحديث عن أهل الكتاب، فيكون المقصود بأهل الذكر كما يرى المفسرون أهل الكتاب، ولأن الذكر كلمة عريضة، كعادة القرآن، حتى يلبي حاجات الناس، فإن (أهل الذكر) هنا يمكن أن تكون (أهل التخصص)، وبالتالي فإننا مطالبون بسؤال أهل التخصص، سواء كانوا أفرادا أو أقساماً علمية أو مهناً أو أنظمة أو منظمات أو شعوباً وحضارات.

ويأمر الله نبيه محمداً ﷺ بسؤال أهل الخبرة والدراية، فيقول تعالى {فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} [الفرقان: ٥٩]، وهكذا في كل ميدان أو علم أو حقل أو مهنة فإن السؤال يتجه لأهل الخبرة والدراية، ومن نافلة القول إن أي إجابة ستقاس بمقياس المقاصد الشرعية، وستغربل بنصوصها، فما كان من زبد رميناه، وما كان من نفع لنا أحرص الناس عليه وأسرعهم إليه، لأن"العلم ضالة المؤمن كلما أصاب منه شيئاً حواه، وابتغى ضالة أخرى"(١٠٧).

ومن يستعرض القرآن سيلاحظ كيف أن الاستفادة من الآخر ــ أياً كان هذا الآخر ــ احتلت مساحة محترمة فيه، فقد استفاد موسى عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل الخمسة من فصاحة أخيه هارون في مواجهة فرعون، واستفاد داوود من ابنه سليمان عليهما السلام ولما يكن نبياً بعد في أحد الأقضية، وتعلم نبيان من وليين الأول: موسى تعلم من العبد الصالح الذي يقال إنه الخضر، والآخر: زكريا استفاد من مريم العذراء عندما رأى بين يديها فاكهة الصيف في الشتاء. واستفاد محمد ﷺ من كل الأنبياء الذين سبقوه وهو خاتم الأنبياء وسيد الرسل أجمعين، فقد وجهه الله بالقول: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠].

وسجل القرآن استفادة البشر من الحيوانات، فقد استفاد ابن آدم الأول من الغراب، واستفاد نبي الله سليمان من الهدهد، واستفاد الانسان ويستفيد من صيد الكلب المعلَّم، وأمر القرآن بالاستفادة من عِبَر الحيوانات والحشرات، وسجل سوراً باسماء بعضها كالنمل والنحل.

وفي عملية إقامة الإسلام في حياة الناس، دعوة ودولة، سياسةً واقتصاداً، تجارة وزراعة، سلماً وحرباً، ثقافة وأخلاقاً، استفاد المصطفى ﷺ وصحابته من تجارب أسلافهم العرب وكانوا مشركين، ومن تجارب الأمم والشعوب والحضارات الأخرى، وخاصة حضارات الروم والفرس واليونان والهند والصين.

ولهذا، أصَّل العلماء وطالبوا بالاستفادة من خبرات وتجارب الآخرين مما ثبت تحقيقه للمصلحة الإنسانية دون أن يتصادم مع نص من نصوص الدين(١٠٨).

ومن أجمل ما صيغ في فلسفة الاستفادة من الآخر ما ذكره المفكر السوداني د. التيجاني عبدالقادر حامد، حيث قال:"القرآن من حيث القضايا التي نزل بها، والمناهج التي يدعو إليها يحتكم إلى الحس المشترك بين الناس، وإلى المعروف الأخلاقي عندهم وإلى البديهة العقلية فيهم، وإلى عبرة التاريخ من خلفهم وإلى سنن الاجتماع من حولهم ــ وهي من آثار ونواتج التوحيد الأول ــ ولا يخلو بالطبع نبع من منابع المعرفة أو منهج من مناهج الفكر البشري إلا وهو آخذ بنصيب من هذه المكونات"(١٠٩).

وأضاف في ذات السياق:"إن المؤمنين الذين يودون وراثة الأرض من بعد دولة الجاهلية لما يطالبهم القرآن بذلك، ليسوا مطالبين أن يبدؤوا دورة الإسلام من الصفر والعدم أو يعيدوا نسج خيوطها من أمعائهم كما يفعل العنكبوت، بل إن كل بقية من خير كان عليه الجاهلون ستجد تمامها في الإسلام، وكل نواتج عقلية توصل إليها الجاهلون بالنظر والاستقراء والتجربة يمكن استيعابها وتوظيفها لإقامة الدين. فالإسلام لا يبتر التاريخ الإنساني ولا يحارب مادة الحياة وقوام الإنسان فيها، وإنما يكيف النوايا ويحور الأهداف ليربطها بمقاصد التوحيد وبواعثه، وليس بالضرورة أن يكون ذلك عن طريق الهدم والاستئصال، كما ليس بالضرورة أن يكون عن طريق الحضانة الفكرية والانكفاء على الذات.."(١١٠).

وقد دعا علماء ومفكرون كثيرون لاقتباس كل نافع من الآخرين، ومن هؤلاء فقيه العصر د. يوسف القرضاوي الذي دعا إلى ذلك في عدد كبير من كتبه، وقد ذكر في أحد مقالاته أن من المزايا القائمة في الحضارة الغربية: العلم التجريبي، حسن الإدارة، التعاون، الاهتمام بالأخلاق الاجتماعية، احترام الإنسان وحرياته وحقوقه، ومقاومة الظلم والاستبداد(١١١).

وذهب د. محسن عبدالحميد إلى أن (الحضارات الأجنبية) المصدر الثاني من مصادر الفكر الإسلامي بعد المصدر الأول الذي هو القرآن والسنة (١١٢) وذهب أحد التربويين إلى أن الانفتاح على

خبرات الجماعات الانسانية المختلفة، أحد المبادئ الموجهة للتربية الإسلامية نحو إحداث التغيير الاجتماعي(١١٣).

وفي جوانب المسؤولية الاجتماعية، مثل بقية الجوانب المضيئة عند الغربيين، فإن دراسة تلك التجارب والاستفادة مما فيها من خبرات ومزايا وانجازات يكون مطلوباً، مع التفريق بالطبع بين الاقتباس (المفروض) والولاء (المرفوض)، والتمييز بين التفاعل الحضاري (المحتم) والغزو الثقافي (المحرم).

هذا على مستوى الاستفادة من الآخر الديني والحضاري، فكيف بالاستفادة من تجارب وخبرات المجتمعات والشعوب الإسلامية، وكيف بالاستفادة من تجارب وخبرات الإسلاميين فيما بينهم البين؟!.

الخاتمة:

إن استزراع المسؤولية الاجتماعية لدى الشباب يتطلب عدداً من الأمور الهامة التي تتوزع في أربعة ميادين، لكن أولها وأهمها ميدان الفكر والمعرفة، وهو ما اهتمت به هذه الدراسة، إذ أن الفكر يوفر الأسس المتينة التي تتحمل أعباء المسؤولية الاجتماعية، وقد توصلت الدراسة إلى أن هذه الأسس أربعة:

الأساس الأول: المسؤولية الاجتماعية عبادة متعدية:

ليست المسؤولية الاجتماعية ترفاً أو نافلة، بل هي عبادة متعدية، فالإيمان في نصوص القرآن والسنة شجرة باسقة ثمرتها الصالحات، والعبودية الشاملة في محراب الحياة نتيجتها التمكين في الأرض، مع ما يحتاج ذلك من حضور للتقوى الاجتماعية، ولهذا عظّم الإسلام أجور العبادات المتعدية أكثر من العبادات اللازمة.

الأساس الثاني: المسؤولية الفردية وتنمية الحس الجمعي:

لابد من خلق الشعور بالمسؤولية في تكوين الفرد، وتنمية إحساسه بالانتماء الجمعي، بتحصينه من مفردات الثقافة الفردية المتطرفة، و ثقافة القطيع، مع إبقاء الدنيا في فكره وفعله، وسيلة لا غاية، وترشيد التدين حتى يظل إيجابياً فاعلاً في المعترك الاجتماعي.

والشخصية الإيجابية، هي الفرد المتميز في ذاته، المؤتلف مع غيره، وهو الحريص على المثاقفة والقراءة الكلية للنصوص، والذي يوازن في أخلاقه بين ما هو فردي وما هو اجتماعي، مع حرصه على أن يكون مفتاحاً لمغاليق المجتمع ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وقد أبرز الإسلام في هذا المضمار حقيقة أن المجتمعات الإسلامية مهما تعددت وتوزعت، إنما هي أعضاء في جسم الأمة الواحد، بإشاعة قيم الحس الجمعي، وتنمية النزعة الوحدوية، والترغيب

بمعانقة قيم التشاور والتسامح والعدل والمساواة، وتوسيع مساحة الحب ومحاصرة ثقافة ومشـــاعر الكراهية.

الأساس الثالث: تنمية الذات الاجتماعية المؤتلفة:

من الأهمية بمكان اكتشاف وتوظيف المواهب الفردية وترقية الذات نحو كمالات الشخصية فـــي إطار البناء الفكري للمسؤولية الاجتماعية. وتؤكد الدراسة أن طرائق التعليم التقليدي لا تقوم بـــدور إيجابي في هذا المضمار، مما يؤكد ضرورة تطوير التعليم، وتوسيع دوائر التعلم الذاتي، وتمكين العقل من القيام بعمليات الفهم والتفكير.

وحتى تبقى الشخصية المتميزة مؤتلفة مع الآخرين، لابد من حمايتها من الانزلاق إلى احتكـــار الحقيقة المطلقة، مع التوجه بطاقتها النقدية نحو الذات تخلية وتحلية.

الأساس الرابع: التعامل الموضوعي مع الآخرين:

إن تبوأ الفرد مكانة مميزة في الخدمة الاجتماعية، يجعل من المهم امتلاكه لإمكانـــات التعامـــل الموضوعي مع الآخرين، بحيث يمتلك الرؤية المنصفة التي تقدر التخصصات وتحتفـــي بـــالخبرات، وتعترف بمميزات الآخرين مهما كانوا، واقتباسها والاستفادة منها كلما برزت الحاجة إليها، ولا سيما في إطار الآليات الفاعلة في ميدان الخدمة الاجتماعية التي تَفَوَّقَ فيها الغربيون إلى حد كبير في هـــذا العصر.

الهـــوامش

١) تجديد الوعي. ط١(دمشق: دار القلم، ١٤٢١ – ٢٠٠٠)، صـــ٦٩.

٢) د. محسن عبدالحميد: الإسلام والتنمية الاجتماعية. ط١(جدة: دار المنارة، ١٤٠٩-١٩٨٩)، صـــ١٤٢.

٣) عن الثمار الاجتماعية لهذه الشعائر، انظر: د.مصطفى السباعي: أخلاقنـــا الاجتماعيـــة. ط٥(بيـــروت: المكتـــب الإسلامي، ١٤٠٧-١٩٨٧)، صـــ٤٤-٤٩.

٤) انظر في كتابنا: مقاصد الصلاة بين حقوق الله وحقوق الإنسان ــ دراستان فـــي الفكـــر السياســـي الإســـلامي. ط١(تعز- اليمن: منتدى الفكر الإسلامي، ١٤٣٠ -٢٠٠٩).

٥) راجع أدلة هذه الأمور في: د. فؤاد البنا: مقاصد الصلاة: صـــ٥٣ ــ ٦٢.

٦) راجع تعليق د. مصطفى السباعي على هذه الآية في:أخلاقنا الاجتماعية: صـــ٤٣،٤٤.،د. عبدالله ناصح علوان: التكافل الاجتماعي في الإسلام. ط٦(القاهرة: دار السلام، ١٤٢٢-٢٠٠١)، صـــ٣٦-٣٨.

٧) الإمام أبو زكريا النووي: رياض الصالحين (الرياض:الندوة العالمية للشباب الإســـلامي، ١٤١٩-١٩٩٨)، رقـــم ١٢٥، صـــ٧١. وهو متفق عليه عند الشيخين.

٨) زين الدين الزبيدي: مختصر صحيح البخاري (القاهرة:مكتبـــة أولاد الشـــيخ للتـــراث، ٢٠٠٦)، رقـــم ١٩٣٠، صـــ٥٨٧.

٩) الإمام أبو زكريا النووي، رقم٢٧٨، صـــ١٢٥.

١٠) نفسه: رقم ٦٣٠، صـــ٢٣٢.

١١) تحقيق: علي حسن عبدالحميد. ط٣(الاسماعيلية-مصر: دار الأصالة، ١٤١٩-١٩٩٩). وانظر تعريفه الشـــامل للعبودية: صـــ١٩.

١٢) عن دور الشعائر التعبدية في إقامة حقوق الإنسان، انظر:د.فؤاد البنا:الخصائص العامة لحقوق الإنســـان فـــي الإسلام. ط١(تعز-اليمن: مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة، ٢٠٠٩)، صـــ٦١-٦٩.

١٣) قارن هذا التعريف المختصر للصالحات بتعريف الشهيد عبـــدالقادر عـــودة: الإســـلام وأوضـــاعنا السياســـية. ط٩(بيروت:مؤسسة الرسالة،١٤١٨-١٩٩٧)، وراجع تفسير الآية في: ابن كثيـــر: تفســـير القـــرآن العظـــيم. تحقيق:طـــه عبدالرؤوف أسعد. ط١(المنصورة-مصر:مكتبة الإيمان، ١٤١٧-١٩٩٦)، ٦/صـــ٥٠-٥٢، سيد قطـــب:في ظـــلال القـــرآن الكريم:ط١٠(بيروت: دار الشروق، ١٤٠٢-١٩٨٢)، ٤/صـــ٢٥٢٨-٢٥٣٠.

١٤) متفق عليه (النووي:رياض الصالحين:رقم٢٠٧، صـــ١٠٣.

١٥) النووي: رياض الصالحين: رقم٢٧٢، صـــ١٢٢.

١٦) الحسبة في الإسلام. تقديم: د.محمد المبارك. ط١(بيروت:دار الكتب العلمية، ١٣٨٧-١٩٦٧)، صـــ٧.

١٧) رواه مسلم:٢٥٦٩ (رياض الصالحين:رقم٨٩٦، صـــ٣٠٠).

١٨) رواه البخاري (مختصر صحيح البخاري: رقم١٠٥٩، صـــ٣٠٣).

١٩) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين. ط١(بيروت:دار إحياء التـــراث العربـــي، ١٤٢٢-٢٠٠١)، ١/صـــ١٧٨.

٢٠) حول هذا الانفصام، انظر: د.يوسف القرضاوي:الصحوة الإسلامية بين الجحـــود والتطـــرف. ط٣ (القـــاهرة:دار الصحوة، المنصورة:دار الوفاء، ١٤١٥-١٩٩٤)، صـــ٧٤، د.مصطفى السباعي: أخلاقنا الاجتماعيـــة: صـــــ٢٠٢، ٢٠٣، فهمي هويدي: التدين المنقوص. ط٢(القاهرة:مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٤٠٩-١٩٨٨)، صـــ١٢٠-١٢٦.

٢١) الموافقات في أصول الشريعة. تحقيق:د. محمد الاسكندراني، عدنان درويش. ط١(بيروت:دار الكتاب العربي، ١٤٢٣-٢٠٠٢)، صـ٣٢١-٣٢٢.

٢٢) رواه البخاري (رياض الصالحين: رقم ٢٦٢، صـ١٢٠).

٢٣) متفق عليه (رياض الصالحين:رقم ٢٦٥، صـ١٢١).

٢٤) رياض الصالحين: رقم ٦٢٧، صـ٢٣٢.

٢٥) نفسه: رقم ٦٣١، صـ٢٣٣.

٢٦) رواه مسلم (انظر:سيد سابق: فقه السنة. ط٨ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧-١٩٨٧)، ١/ص٥٠١، ٥٠٢.

٢٧) رواه مسلم وأصحاب السنن.

٢٨) رواه المنذري: صحيح الترغيب والترهيب، رقم١٠٨. وقال الألباني حسن.

٢٩) نفسه: رقم: ٢٦٧.

٣٠) انظر: د. مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا. ط٤(بيروت:المكتب الإسلامي، ١٤٠٥-١٩٨٥)، صـ١٢١-١٦٨.

٣١) نفسه: صـ١٢٥-١٦٨، د. فؤاد البنا: مقاصد الصلاة: صـ١١١، ١١٢.

٣٢) انظر تفصيل ذلك في كتابنا: مقاصد الصلاة بين حقوق الله وحقوق الإنسان: صـ١١٣ -١٢٦.

٣٣) انظر: الإمام أبو المعالي الجويني: الغياثي أو غياث الأمم في التياث الظلم. تحقيق: د.مصطفى حلمي، د.فؤاد عبدالمنعم. ط٣(القاهرة دار الدعوة، د.ت)، صـ٨٥-٨٩. د. محمد عبدالقادر أبو فارس: القاضي أبو يعلى الفراء وكتابه الأحكام السلطانية. ط٢(بروت:مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣-١٩٨٣)، صـ٣٦٢، وانظر نقد د.لؤي صافي لهذا في كتابه: العقيدة والسياسة – معالم نظرية عامة للدولة الإسلامية. ط١(دمشق:دار الفكر، ١٤٢٢-٢٠٠١)، صـ٢١٥-٢١٩.

٣٤) رواه أبو داوود والترمذي والنسائي وغيرهم (رياض الصالحين: رقم ١٩٧، صـ٩٧). وانظر: النيسابوري: أسباب النزول: صـ١٥٨، ١٥٩، ١٦٥، ١٦٦، ابن تيمية: الاستقامة: صـ٣٥٥، ابن القيم: إعلام الموقعين: ١/صـ٣٠١، الجواب الكافي: صـ٦٢، سعيد حوى: الأساس في التفسير: ٣/صـ١٥٣١ – ١٥٣٥.

٣٥) رواه الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ١/صـ١٨٠.

٣٦) رواه البخاري: ٣٥٥/١٠ (رياض الصالحين، رقم ٣٢٢، صـ١٣٧).

٣٧) د.يوسف القرضاوي: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي. ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٤-١٩٩٣)، صـ٢٢٥، ٢٢٦.

٣٨) انظر كتابه: مدخل إلى التنمية المتكاملة – رؤية إسلامية. ط١(الرياض: دار ا لمسلم، ١٤١٨ – ١٩٩٧)، صـ٢٨٥، ٢٨٦.

٣٩) د. عون الشريف قاسم: في الطريق إلى الإسلام. ط١(بروت:دار القلم،١٩٨٠)، صـ١٩.

٤٠) الشيخ ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (القاهرة:المكتب الإسلامي، د.ت)، ٤٢٧/١.

٤١) أبو الحسن الماوردي: أدب الدنيا والدين (المنصورة- مصر: مكتبة الإيمان، د.ت)،صـ١٨٩.

٤٢) حوارات منهجية في قضايا نقد متن الحديث الشريف، مجلة إسلامية المعرفة، العدد٣٩، شتاء١٤٢٦-٢٠٠٥)، صـ٢٤٣-٣٤٤.

٤٣) د.علي محمد الصلابي: عمر بن عبدالعزيز – معالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة. ط١(القاهرة: مؤسسة اقرأ، ١٤٢٦-٢٠٠٥)، صـ٣١٤.

٤٤) عبدالرحمن السيوطي: تاريخ الخلفاء. مراجعة: جمال مصطفى. ط١(القاهرة: دار الفجر، ١٤٠٢ – ١٩٩٩)، صـ٢٢٨.

٤٥) انظر: د. علي محمد الصلابي: فاتح القسطنطينية: السلطان محمد الفاتح. ط١(القاهرة: مؤسسة اقرأ، ١٤٢٦ – ٢٠٠٥)، صـ١٨٠.

٤٦) انظر: أ. د: عبدالكريم بكار: تجديد الوعي: صـ٩٥-١٠٢.

٤٧) نفسه: صـ١٠٣.

٤٨) انظر: السيد عبدالرحمن الكواكبي: أم القرى. ط٥(بيروت: دار الشرق العربي، ١٩٩٦ – ١٤١٦)، صـ٣١، ٣٢.

٤٩) رواه مسلم: ٢٥٨٦(رياض الصالحين: رقم ١٩٥٢، صـ٥٨٧).

٥٠) مختصر صحيح البخاري: رقم ١٩٣٣، صـ٥٨٨.

٥١) متفق عليه (رياض الصالحين: رقم ٢٣٣، صـ١٠٩).

٥٢) مختصر صحيح البخاري: رقم ٢٠٧٥، صـ٦١٩.

٥٣) نفسه: رقم ٢٠٩٢، صـ٦٢٥.

٥٤) انظر: أ. د: عبدالكريم بكار: من أجل انطلاقة حضارية شاملة. ط١(الرياض: دار المسلم، ١٤١٥)، صـ١٣٥.

٥٥) سيد أحمد عثمان: علم النفس التربوي الاجتماعي (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠)، صـ٢٨.

٥٦) انظر كتابه: إحياء التقاليد العربية (القاهرة:مكتبة الأسرة، دار الشروق، ٢٠٠٣)، صـ٣٦، ٣٧.

٥٧) انظر كتابه: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. تقديم: د.أسعد السحراني. ط٢(بيروت دار النفائس، ١٤٢٤ – ٢٠٠٣)، صـ١٢٠، ١٢١.

٥٨) أخلاقنا الاجتماعية: صـ٤١، ٤٢.

٥٩) د. شريف ماردیني وغيره: بديع الزمان النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي. ترجمة: أورخان محمد علي ط١(استانبول: نيسيل، ١٤١٧- ١٩٩٧)، صـ٦١.

٦٠) رواه البخاري: ٢٦٠/٤.

٦١) مختصر البخاري: رقم١٠٦٦، صـ٣٠٤.

٦٢) متفق عليه (البخاري: ٧٧/١٢، مسلم: ١٦٨٨).

٦٣) رواه البخاري: ١٣٢/١ (رياض الصالحين: رقم١٨٣٧، صـ٥٣٨).

٦٤) مختصر البخاري: رقم١٣، صـ١٥.

٦٥) رواه مسلم: ٥٤ (رياض الصالحين: رقم٨٤٨، صـ٢٨٩).

٦٦) مختصر البخاري: رقم١٧٤٢، ٥٤٤.

٦٧) د. عبدالله ناصح علوان: التكافل الاجتماعي في الإسلام: صـ١٩.

٦٨) متفق عليه(البخاري: ١٧٩/٣، مسلم: ٢٦٤٧).

٦٩) رواه البخاري: كتاب المناقب، باب قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات:١٣].

٧٠) رواه مسلم: ٢٥٢٦.

٧١) رواه البخاري: كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة (ابن حجر: فتح الباري: ٤٠٥/١١).

٧٢) انظر: منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية ط٢(الزرقاء- الأردن: مكتبة المنار، ١٤٠٦- ١٩٨٥)، ٣/صـ٤٨- ٥٧.

٧٣) انظر: د. محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية. ط٤(القاهرة: دار السلام، ١٤١٧ – ١٩٩٧)، صـ٣٢٢- ٣٢٤.

٧٤) نفسه: صـــ٣٥٣.

٧٥) من أجل انطلاقة حضارية شاملة: صـــ١٣٦.

٧٦) أ.د. عبدالكريم بكار: تجديد الوعي: صـــ٢١٥، ٢١٦.

٧٧) أ.د. عبدالكريم بكار: من أجل انطلاقة حضارية شاملة: صـــ١٣٦.

٧٨) ابراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط (استانبول- تركيا: دار الدعوة، ١٩٨٩)، ٢/صـــ٦٩٨.

٧٩) نفسه: ٢/صـــ٧٠٤.

٨٠) البيهقي: كتاب القضاء والقدر، رقم١٦٤. وإسناده حسن (انظر: تخريج الحديث: صـــ١٠٨، ١٠٩).

٨١) ابن منظور المصري: لسان العرب. ط١(بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، ٥/ صـــ١٥٠، مجد الدين الفيروز أبادي: القاموس المحيط. ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧ ــ ١٩٨٧)، صـــ٥٨٨.

٨٢) ابراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط: ٦٩٨/٢.

٨٣) علي بن محمد الجرجاني: التعريفات (القاهرة: مكتبة القرآن للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.)، صـــ١٦٧.

٨٤) انظر: د. مجدي الهلالي: العودة إلى القر آن: لماذا وكيف. ط١(القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤٢٤- ٢٠٠٣)، صـــ٦٥- ٦٩.

٨٥) رواه مسلم: ١٠١٧.

٨٦) د. عبدالكريم بكار: من أجل انطلاقة حضارية شاملة. ط١(الرياض: دار المسلم للنشر والتوزيع، ١٤١٥)، صـــ٦٤.

٨٧) مختصر البخاري: رقم١٩٣٧، صـــ٥٨٨.

٨٨) نفسه: رقم ١٥٩٠، صـــ٤٧٢.

٨٩) نفسه: رقم١٩٤٢، صـــ٥٨٩.

٩٠) نفسه: رقم١٩٤١، صـــ٥٨٩.

٩١) رياض الصالحين: رقم٦٦، صـــ٥٠.

٩٢) انظر على سبيل المثال: أبو الحسن الندوي: المدخل إلى الدراسات القرآنية ــ مبادئ تدبر القرآن والانتفاع به،أضواء على وجوه الإعجاز والعلوم القرآنية. ط١(القاهرة: دار الصحوة، ١٤٠٦- ١٩٨٦)، صـــ٢٧- ٣١.

٩٣) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب. تحقيق: بشير محمد عيون. ط٢(دمشق: مكتبة دار البيان، ١٩٨٨)، صـــ٦٩.

٩٤) فصول في التفكير الموضوعي. ط٣(دمشق: دار القلم، ١٤٢١- ٢٠٠٠م)، صـــ٤٥.

٩٥) نفسه: صـــ٤٥.

٩٦) نفسه: صـــ٩.

٩٧) انظر: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير. ط١(القاهرة: دار الغد العربي، ١٩٩١- ١٤١٢)، ١٣/ صـــ٥١٦- ٥٢٤.

٩٨) نفسه: ١٣/ صـــ٥١٩.

٩٩) رواه أبو بكر البيهقي في كتاب القضاء والقدر، تحقيق: أبو إسحاق السمنودي (القاهرة: مكتبة ابن عباس، د.ت.)، رقم ٢٨٠، صـــ١٦٢، وأخرجه البخاري في صحيحه: رقم ٧٥٥١، ومسلم في صحيحه: رقم٢٦٤٩.

١٠٠) (١٠٠) الحافظ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. ط٧ (القاهرة: دار الحديث، ١٤١٤- ١٩٩٣)، ٣/ صـــ٥٩.

١٠١) رواه الترمذي: السنن، رقم: ٣٧٩٠ (٥/ ٦٦٤). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٢٢٤ (٢٢٣/٣).

١٠٢) عبدالعزيز بن محمد السدحان: معالم في طريق الإصلاح. ط١ (الرياض: دار العاصمة، ١٤٢١هـ) صـــ٣٣.

١٠٣) انظر: أبو إسحاق الشاطبي: الاعتصام. تحقيق: سيد إبراهيم. ط١ (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢١- ٢٠٠٠)، ١/صـــ١٨٣، ١٨٤.

١٠٤) من هؤلاء: د. عبدالكريم بكار. انظر كتابه الرائع: فصول في التفكير الموضوعي: صـــ١٧١- ١٧٦.

١٠٥) هو: د. بكار: انظر المرجع نفسه/ صـــ٥٠ ــ ٥٩.

١٠٦) دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين. ط٢ (أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت: الدار العربية للعلوم، ١٤٢٥ – ٢٠٠٥)، صـــ٤٠.

١٠٧) رواه أبو خيثمة النسائي: كتاب العلم، رقم ١٥٨، صـــ١٥٣. وإسناده حسن.

١٠٨) للباحث دراسة كاملة في هذا الموضوع في مجلة"بحوث جامعة تعز"العدد الثالث عشر، ١٤٣١– ٢٠١٠م تحت عنوان: الاستفادة من الآخر في الإسلام – رؤية تأصيلية.

١٠٩) أصول الفكر السياسي في القرآن المكي. ط١(هيرندن– الولايات المتحد الأمريكيـــة؛ المعهـد العـالمي للفكـر الإسلامي، ١٤١٦– ١٩٩٥)، صـــ٤٧ (بتصرف بسيط).

١١٠) نفسه: صـــ٥١.

١١١) الإسلام والتطور (الدوحة: مجلة الأمة، ربيع آخر ١٤٠٢هـــ)، صـــ١٦.

١١٢) تجديد الفكر الإسلامي. ط١ (أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٦– ١٩٩٦)، صـــ٤٩، ٥٠.

١١٣) (١١٣) هو: د. سيف الإسلام علي مطر: التغير الاجتماعي – دراسة تحليلية من منظور التربية الإســـلامية. ط٢ (المنصورة – مصر: دار الوفاء، ١٤٠٩ ــ ١٩٨٨)، صـــ٩٩، ١٠٠.